ثلاث قصص للفتيان

گەلاوێژ

گەلاوێژ

ثلاث قصص للفتيان

ترجمة : جلال زنگبادي

اسم الكتاب : ثلاث قصص للفتيان
اسم المؤلف : گەلاوێژ صالح فتاح
ترجمة : جلال زنگبادی
تصميم الغلاف: ريم الجندي
عدد النسخ : (١٠٠٠) نسخة
السنة الطبع: طبعة جديدة / السليمانية /٢٠١٨

المقدمة

في أوروبا و الدول المتقدمة، يولى الإهتمام بكتب و مجلات الأطفال، بحيث يومكن للطفل منذ عمر السادسة و السّابعة أن يذهب إلى المكتبات و يشتري الكتب و المجلات و مستلزمات القراءة و الكتابة كما يرغب و حسب عمره. و الكتب الأكثر رواجاً في أمكنة بيع الكتب هي كتب الأطفال"لأن الإهتمام بقراءة الكتب علامة من علامات الشطارة و التفوّق، حيث تتفتح أذهان أولئك الصغار بقراءة تلك الكتابات و الكتب المتنوّعة" فيكونون ذوي خبرات كثيرة في الكِبَر.

و لذا حبّذت أنْ أكتب لكم هذه المرّة هذه القصص، إذ فكرت و تساءلت: لماذا عليّ أنْ أكتب دائماً قصصاً و روايات للكبار؟ و لماذا لاأكتب شيئاً لفتيتنا الحلوين؟ و رغم انّ هذه القصص مكتوب عليها (للفتيان) فيعني انها مكتوبة لمن يستطيع القراءة في تلك الأعمار.

آمل أن تروق لكم هذه الصّفحات" فتستمتعون بها، و تشاركون أبطالها في الأحداث و تختلطون معهم خياليّاً..

و بعد..أترككم في رعاية الله، متمنّيّة لكم النجاح و التقدم الدائميين" فتكون كردستان الزاهيّة أجمل بمنظركم و شذاكم. و كلّي أمل أنْ أقدّم لاحقاً نتاجات أخرى لكم أيّها الأعزاء الأحبّة.

قصّة لولو

في حيّ من الأحياء الطيّبة في كركوك قلب الكُرد، كان هناك العديد من الدور القريبة و البعيدة عن بعضها البعض، وكانت مكتضنة بعوائل تضمّ الكثير من الأطفال و الصبايا و الفتيات. كان العديد من أولئك الأطفال يداومون في مدرسة واحدة، ويداوم اليافعون و اليافعات في مدرسة ثانويّة، ومن ثمّ في كلّيّات الجامعة...

كان جلّ أولئك التلاميذ و الطلبة و الآباء و الأمّهات و الكبار مشغولين بتأدية مهامهم و مشية أمورهم. كان الآباء و الأمّهات مثابرين و مثابرات على العمل و تدبير لقمة العيش و التفكير و الإهتمام بشؤون أطفالهم الأحبّاء و تربيتهم تربية حميدة. وكانت الأمّهات المخلصات يعملن أحياناً خارج منازلهنّ معلمات و مدرّسات أو موضفات في الدوائر الحكوميّة، أو في المستشفيات أو في الشركات الأهليّة و غيرها.

كانت الأمّهات يسار عن ضباحاً في الذهاب إلى أعمالهنّ و أشغالهنّ بعد إرسال أطفالهنّ إلى المدارس، بينما يستودعن صغار هنّ لدى أمّهاتهنّ و ذويهنّ. وكان هناك أحياناً من القُربي و الجيران مَنْ يفوق حرصاً و إخلاصاً في العناية بشؤون

صغار و منازل هاتيك الذاهبات إلى العمل، واللواتي وجب عليهنّ تحمل المسؤوليّة بالعمل لمؤازرة أزواجهنّ في تدبير شؤون المعيشة و تربية الأطفال. كما كان عليهنّ أن يسار عن أيضاً بعد انتهاء الدوام في العودة إلى بيوتهنّ، بينما كان بعض الأطفال و الفتيات و اليافعات غير مكترثين بمساعدة أمّهاتهم المتعبات، ولو بلملمة الأفرشة و تنظيم فوضى الغرف! في حين كان هناك أطفال و صبايا ذوو وذوات شعور و إدراك مرهفين لايتصرّفون/لايتصرّفن تصرّفا يزعج الأمّهات و الآباء، وإذا ما بدر منهم /منهنّ ما يغضب الأمّهات و الآباء" كانوا/كنّ يعتذرونّ /يعتذرن، ولن يتناسوا /يتناسين الحدث، ويسعون /يسعين دائماً إلى عدم تكراره.

وكان هنالك أولاد وبنات لايبالون /لايبالين بنصائح و إرشادات الآباء و الأمهات" حيث كانت تلك النصائح تدخل من هذه الأذن و تخرج من الأخرى! و طبعاً كان أمثال أولئك الأولاد و هاتيك البنات اللاأباليين /اللامكترثات يتعرّضون /يتعرّضن دائماً لمنغصّات و مشكلات، ثمّ يندمون /يندمن..أمّا العقلاء /العقلات السّامعون /السّامعات لنصائح الآباء و الأمّهات فكانوا /كنّ ينجحون /ينجحن في المدرسة و العمل وكانوا /كن دائما مرفوعيّ/مرفوعات الهامة، ويغدون /يغدين رجالاً /نسوة متفوقين /متفوقات ذوي /ذوات صيت حسن.

وكان هنالك من الأطفال و الفتيان من لايصغون لنصيحة و لايكترثون بانز عاج و غضب الآباء و الأمهات، بل الأجداد و الجدّات، بينما كان الأطفال و الفتيان الآخرون المفرحون للقلوب من ذوي الحسّ و الوعي المرهفين يعيرون الإهتمام أكثر بالأجداد و الجدّات من الإهتمام بآبائهم و أمهاتهم" لشيخوختهم /شيخوختهنّ و عجزهم /عجزهنّ" ممّا يحتاجون /يحتاجين إلى عون الأبناء و الأحفاد.

إنّ على الإنسان ألاّ يهتمّ فقط بجدّه و جدّته، بل بكلّ مسنّ و مسنّة و شيخ و عجوز، ولايبخل عليهمفي القيام بأيّما مساعدة ممكنة، و لايزعجهم /يزعجهنّ ويدوّخهم/ يدوّخهن بالضخب و الضجيج و الفوضى. ينبغي على المرء أن يتصرّف مع كلّ شيخ و عجوز تصرّفاً حميداً، و يحترمه و يحترمها و لا يزعجه و يزعجها، فكيف الحال إذن إن كان ذاك جدّه و كانت تلك جدّته؟! لكنّما كما أسلفنا أن هنالك بعض الأطفال الوقحين و المشيطنين و سيييء السّلواك محرومون من السّلواك الحسن.

ذات يوم خرج من البيت أخ و أخت من ذوي الخلق المحدود و من الشطّر. كان اسم البنت تريفه و عمرها أربع عشرة سنة، و اسم الولد وريا و عمره خمس عشرة سنة. كان كلاهما يحمل كيساً، و هما يذهبان إلى زيارة قريبة مريضة، بدلاً عن أمّهما المتوعكة الصحة، و التي تعذر عليها الذهاب، فرغم مرضها كانت أمهما السيّدة فاطمة حاملة همّ تلك القريبة المريضة، ولذا أرسلتها لزياراتها و تقديم هديّة لها.

خرج وريا و اخته تريفه و سدّا باب الدار وراءهما، و سارا على الدرب، وإذا بتريفه تتوقف فجأة و تخاطب وريا بارتياب:

-يا ترى ما الخضب و الضجيج اللذان يتناهيان إلى الأسماع من هناك؟ أترى حدث مكروه لاسامح الله؟

أضغى وريا قليلاً، ثمّ قال مبتسماً:

-هيّا سيري سيري، كفاك سوّيت نفسك العلم المتشائم المهموم دوماً! أما تسمعين الضحكات و القهقهات و الكركرات؟ كلّها ضحك في ضحك!

قالت تريفه وهي تمشي:

-صحيح ما قلته، إنه الضحك" فلنذهب ولنعرف ما الأمر.

أسرعها قليلاً، و انعطفا لإلى الزقاق على يمينها، حيث كان الصوت يأتي من هناك، ونظرا من بعيد" فشاهدا شلّة من الأطفال الوقحين المتشيطنين يتحلقون قطّة مسكينة ينغزون بعصيّهم و عيدانهم بطن القطّة البكماء و ظهرها و عينيها، و هي تتقافز و تتشقلب و تجري و تتسلق هذا الحائط و ترتطم بذاك الباب من شدّة الأم. فما كان من وريا و تريفه إلاّ أن يجريا بسرعة و هما ينهران و يهددان أولئك الأطفال، ولّما وصلا هناك" شاهدا القطة البريئة تنزف الدماء من فهما، و هي في أسوأ حال.

صرخ فيهم وريا بانفعال و غضب، وانتزع عصا أحدهم، وقال:

-عار عليكم أيّها القاساة الغلاظ القلوب! لماذا تعذبون هذا الحيوان اللطيف المسكين؟ أما تستحون؟ أما تخشون الله؟! وفي الوقت نفسه، راحت تريفه تضربهم بكيسها الحاوي على الفواكه، وهي تقول:

-أما تستحون أيّها الأوباش وأنتم تضحكون و تقهقهون و تتصايحون بمرح لتعذيبكم هذه القّة البكماء المسكينة، بينما تصوّرنا أن حدثاً مؤسفاً قد وقع؟! فانبرى لهما إثنان من الوقحين الصلفين أحدهما نوروز في حدود الثالثة عشر و الآخر كمال في العمر نفسه صائحين في وجهيهما:

-أيّ حق لكلما في التدخل وما شأنكما فالقطة ليست قطّتكما؟

فهاج وريا غضباً، بحيث لم يتمالك نفسه ورفع العصا بيد مرتجفة و صاح في وجهيهما:

-لو لم أخش الله و العيب" لكسّرت الآن هذه العصا على رأسيكما" مادمتما تعذبان هذه المخلوقة البكماء التعيسة، بدلاً عن إطعامها وسقيها وتمسيد ظهرها.

وعندها إنفتح أحد الأبواب، وخرج رجل أنيق مهيب يشبه طبيباً حاملاً حقيبة ومفتاح سيّارته بيده، وهمّ بركوبها، لكنّه انتبه إلى الضجيج، فتوفق ونظر إلى حشد الأطفال و الفتيات، وإذا به يلمح وريا فيخاطبه:

-أهذا أنتوريا العزيز؟ ماخطبكم؟!

هدأ وريا قليلاً، وقال نظراً إليه:

-أخانا الأكبر دكتور كنّا أنا وأختي تريفه مارّينمن هنا، فسمعنا ضجيجاً ضحكاً، وإذا وضلنا، رأينا هؤلاء الأطفال يعذبون هذه القطة البريئة المسكينة، كلّ واحد منهم يغرز عصاه أو عوده في بطنها وعينها.

ذهل الدكتور واستشاط غضباً" لّما رأى القطّة التعيسة التي تكوّرت و لاذت بحجر كبير قرب وريا. وانزعج الدكتور وكاد أن يخرج عن طوره ويضرهم، فقال بغضب:

-إنّهم يكشفون عن حقيقة طباعهم وسلوكهم، لأن الأقوام الجهلاء المتخلّفين يتصرفون هكذا مع الحيوانات و الكلاب و القطط، بينما يحبّ الناس المتمدنون المتحضرون الكلاب والقطط بقدر حبهم لأطفالهم، أمّا هؤلاء فليس عندهم من يعلّمهم ويغرس في قلوبهم الرحمة والشفقة بالحيوانات البكماء.

كان الدكتور حسن الذي درس الطلب في لندن، ثمّ عاد إلى بلده" ليخدم أبناء جلدته، كان من معارف والد وريا و تريفه. ألقى نظرة على شرذمة الأطفال القساة، وقال وهو يهز بقوّة مفتاح سيّارته:

-في أوربا، حين يتبضّع الناس ويشترون الخبز واللحم وغيرهما، يضعون المسواق في عربة، نجد قسماً منه علب لحم وأطعمة لقططهم وكلابهم. وفي تلك البلدان يقول الشيوخ والعجائز أنّ كلابنا وقططنا أوفي لنا من أولادنا وبناتنا! وهنالك إذا ما ضاع كلب أو هر" يفعل صاحبه ما يفعله لطفله إذا ضاع، وإذا بك ترى على الحيطان والأشجار وفي الأزقة أوراقاّ معلقة تشتمل على أوصاف القط

الضائع: شكله، لونه و...مع رجاء الإتصال ممّن يجده برقم هاتف صاحبه" لتسليمه ونيل مكافأةمجزية.

ثمّ ضرب الدكتور حسن كفاً بكف وقال:

-أوّاه! ما أتعس هذه القطة!

ثمّ نظر إلى وريا وتساءل:

-أليس ثمّة ما نضعها فيه؟ أريد أن آخذها إلى عيادتي، وأتلفن إلى طبيب بيطري صديق لي" كي يأتي ويعالجها.

ثمّ انحنى الدكتور حسن ومسّد ظهر القطّة وقال:

-هذا هو سلوك الناس المختلّفين الأجلاف.

مدّ وريا يده ورفع القطة، ووضعها على أحد الأكياس، والذي كانت تريفه قد أفرغته حين قال الدكتور حسن انّه سيأخذها.

قال وريا:

-سآتي معك حتى عيادتك" لأن القطّة ستخاف وتقفز، حين تسوق سيّارتك.

-والله أشكرك جداً.

نظرت تريفهإلى أخيها وقالت:

-إذهب أنت ولاتهمّ بأمري" فأنا أستطيع الذهاب إلى بيت قريبتنا، وهو ليس ببعيد من هنا.

قال الدكتور حسن:

-تعالي اركبي معنا، سنوصلك إلى هناك، ثمّ نذهب..

وسرعان مافرغ ذاك المكان، حيث ركض كلّ واحد من أولئك الأطفال المتشيطنين القساة إلى بيته أو مكان مايرقب متلصّصاً مايفعله وريا والدكتور وتريفه. أمّا اليافعان اللذان كانا قد واجها وريا وتريفه بالكلام والصياح، فكانا يراقبان المشهد من بعيد، ويقرّبان رأسيهما من بعضهما البعض ويتهامسان.

ومن ثـمّ أوصـلا تريفـه إلى بيـت قـريبتهم، وبعـدها ذهبـا إلى عيـادة الـدكتور حسن، ولمْ يمر وقـت طويـل، حتـى جـاء صـديقه الـدكتور سَـرْكو، وأخـذ يفحـص القطّة، ويقف قربه الدكتور حسن و وريا.

حالما وقع نظر الدكتور سركو على القطّة التعيسة" إنزعج وقال:

كسّر الله أيديهم! ماذا فعلوا بهـذه المخلوقـة البكمـاء؟! كـادوا أن يجهـزوا علـى روحها، لاأعتقد أنّها يمكن أن تشفى!

كاد وريا أن يبكي، حين سمع ماقاله الدكتور، وفرّك يديه، وقال في قلبه:

-إلهى إرحم هذه القطّة الخطيّة كي لاتموت.

وكانت عيناه على وشك أن تغرورقا بالدمع، خصوصاّ وهو يرقب الدكتور سـركو وهو يقلب القطّة ويتمعّن في شفتها المشقوقة النازفة، وعينها اليمنى التي كانت تنزف دماً وصديداً، وساقها المسكورة المتدلاّة كخرقة.

كانت القطّة صغيرة العمر نحو ثمانية أشهر، وكان لونها أبيض مشوباً ببضـع بقـع سود، وكانت جميلة جداً وخفيفة الظلّ. لكنّها كانت تبـدو للعيـان مغـبرّة وسـخة من فرط ما ضربوها ومرّغوها التراب.

نظّف الدكتور سركو وعقم جراح القطيطة وداوى شفتها وعينها وسقها. ثـمّ رفـع رأسه ناظراً إلى الدكتور حسن و وريا وقال:

-لقد كفت عينها عن الرؤية، أضابتها عصا.

وضمّد ساقها، ثمّ زرقها بإبرة، وقال:

-بعد قليل ستهدأ آلامها وتنام.

قال وريا وحنجرته تعصّ بالألم والإنزعاج:

-وكيف ستأكل إذا كانت الآن جائعة؟!

أجابه الدكتور سركو:

-ولايهمّك" سأعطيها الآن لبناً بواسطة أنبواب.

فرح وريا وقال:

-سلّم الله يديك يادكتور" مادمت قد قلّلت آلام هذه القطيطة الخطيّة.

وعندما انتهى الدكتور من تضميد وتعذية القطيطة سأل:

-والآن أين ستبقى القطيطة ومن سير عاها؟

سارع وريا في القول:

-أنا أخي الأكبر دكتور سركو، سآخذها الآن إلى بيتنا، وأهيّء لها المكان المريح، وأعنى بها.

قال الدكتور حسن: عشت ، أحسنت ياشاطر.

ثمّ رمق وجه وريا وتسائل:

-ترى هل سيرضى والداك؟

أجاب وريا بحماس:

-كيف لا؟ والله إذا لم يرضيا بوجودها في بيتنا" سأخرج معها من البيت، ولكنّ قلوب والديّ وجدّتي مليئة بالرحمة والشفقة.

غسل الدكتور سركو بيه، وبينما كان يجففهما، قال:

-عندنا لايهتمّون بمصائر الحيوانات" وإلاّ لو كانت هذه القطيطة في أوربا أو البلدان المتقدّمة، لأودعوها مستشفى بيطريّاً، أمّا هنا فلاشيء من ذلك!

فعلّق الدكتور حسن على كلامه:

-وهل يهتمّون هنا بالبشر" حتى يهتمّوا بالحيوان التعيس؟!

واصل الدكتور حسن كلامه مخاطباً وريا:

-هيّا أيّها الولد الطيّب هات تلك العلبة الكترونيّة الفارغة" لنصغ القطيطة فيها، لتأخذها إلى البيت، وسأوصلك بنفسي.

فشكره وريا. وعندها زوّده الدكتور سركو بالأدوية وقال له:

-بلّعها هذا القرص مرّتين في اليوم، ودهّن شفتها بهذا المرهم، ورضّعها اللبن بهذا الأنبوب. وإذا أردت أن تستفسر منّي عن أيّ سيء" فهذا رقم تلفوني، يمكنك أن تهاتفني.

بعد أن أوصل الدكتور حسن وريا والقطيطة إلى البيت، نزل وريا حاملاً العلبة الكرتونية الصغيرة الحاوية على القطيطة بهدوء، وهو يشكر الدكتور حسن، الذي عاد بعدئذ إلى عيادته، بينما دخل وريا إلى بيتهم حاملاً الكرتونية.

وقبل عودة وريا، كانت تريفه قد عادت إلى البيت بعد زيارة قريبتهم المريضة، وحكت لإمّها وغيرها كلّ شيءعمّا حدث، لكنّ وريا كان متردداً وقلقاً قليلاً حين دخل، وهو يقول في قلبه:

-وهل ترى سيرضى والداي رغم مايتصفان به من رحمة وشفقة؟! ربّما سيستاء ان ويدمدمان.

وقرّر وريا في نفسه أن يجادل كلّ منْ يرفض العناية بالقطيطة المنكوبة، ولكنْ بالعكس ممّا كان يتصوّر" فقد استقبلته أمّه وأخواته وأخوته بحماس، وفي المقدمة أخته تريفه، وراح الجميع يسألون بحرارة عن حال القطيطة، وثمّنوا موقفه الإنساني وهنّؤوه على إنقاذ حياة القطيطة البريئة المغلوبة على أمرها، من براثن أولئك الهمج العتاة.

ثمّ وضعوا القطيطة في مكان هاديء، بعدما جلبت أمّهم فاطمة خان بطّانيّة وطوتها أربع طيّات، وهي تقول:

-هذه القطيطة خطيّة، افرشوا تحتها هذه البطّانية" لأن الكرتونة صلبة غير مريحة.

ثمّ راح جميع يعبّرون عن تأثرهم لحال القطيطة ويبدون عليها العطف، كلّ على طريقته. وبعدها طلب منهم وريا أن يدعوها وشأنها" لكي تنام" لأنها مزروقة بإبرة مسكّنة للألم، بحيث تبدو في غيبوبة بلا صوت ولاحركة.

حلّ المساء، ولم يمض وقت طويل حتى عاد أبوهم من السّوق، حيث يعمل بزّازاً يبيع الأقمشة في دكّانه، منذ الصباح حتى المساء يوميّاً. كان رجلاً طيّباً ذا صيت حسن في السّوق، واسمه(أمين أفندي). وعندما سمع بقصّة القطيطة" تأثر أيضاً لحالها وأبدى عطفه عليها، وطمأن بنيه وبنته:

-لاتقلقوا ولاتحزنوا" ستشفى بعد أيّام قليلة، وما عليهم إلاّ تنفيذ تعليمات الطبيب بخصوص الأدوية وتغذيتها باللبن.

وأثناء الليل حتى الصباح، كان وريا وتريفه قد تفقّدا القطيطة بضع مرّات، وفي الصباح حين همّا بالذهاب إلى دوام المدرسة، طمأنتهما أمّهما ووعدتهما أن تتفقد حال القطيطة وتهتمّ بشأنها" مهما كانت منشغلة بشؤون المنزل. ولمْ تكف تريفه عن التوسّل من أمها وقولها بافتدائها بروحها على أن تعتني بالقطيطة، وخاصّة بإرضاعها اللبن، وإلاّ ستموت جوعاً. وذلك قبل أن تخرج من الباب، كما رجت جدّتها:

-بالله عليك جدّتي العزيزة لاتدعي الأطفال والضيوف أن يذهبوا ويزعجوا القطيطة.

ولأن الجدّة كانت تحبّ أحفادها كثيراً، وروحها معلّقة بكلّ شعرة منهم، وبالأخص تريفه المحبوبة عندها" لكونها بنتاً عاقلة وشاطرة وطيّبة جداً، فقالت لها:

-روحي لك الفدا، إذهبي بكلّ اطمئنان إلى دراستك، حبّاً لعينيك سأحرص عليها أكثر منك حتى تعودي...

ظلّت القطيطة المريضة على تلك الحالة قرابة عشرة أيّام في بيت أمين أفندي، وبعدها راحت تشفى تدريجيّاً، إذ أخذت تفتح عينها المصابة، والتأم جرح شفتها المشقوقة، وبدأت ساقها(المجبرة) بالحركة رويداً رويداً. فابتهجت قلوب وريا وتريفه وكلّ أهل البيت إلى حدّ كادوا أن يرقصوا ويدبكوا من الفرح. وراحت القطيطة

تعود الهوينى إلى حالتها الطبيعيّة في الأكل والشرب والحركة والقوف على قوائمها" بحيث كانت تحرّك ذيلها" كلّما رأت تريفه و وريا، وتمدّ إليهما يدها، وتهوى معهما اللعب. ورغم ضعفها ونحولها" بعد شقّ شفتها من قبل أولئك الأطفال القساة بضربها بالعصا، أخذت تشفى وتقوى بفضل عناية ورعاية تريفه و وريا وكلّ أهل بيت أمين أفندي. وعندها اقترحت تريفه أن يطلقوا عليها اسماً ما، فاقترحوا بضعة أسماء، واستقرّوا في نهاية المطاف على اختيار اسم(لولو) لها.

وبعدما اطمأنّت تريفه من شفاء القطيطة، التي راحت تتجوّل في البيت وتلعب وتتقافز هنا وهناك" بحثت بين أشيائها فوجدت شريط حرير بنفسجيّاً، وجنيجلاً جميلاً بين أشياء أمّها، كانت معلّقة بحزام زيّ نسويّ كرديّ قديم، فأدخلت الشريط في ثقب الجنيجل، ثم عقدته في عنق لولو. وراحت لولو تغدو تروح في البيت وتتقافز وترقص وتدبك على صوت الجنيجل. وأخذت بمضيّ الوقت تستعيد صحتها الكاملة وتكتنز وتحلو.

كان الجميع وريا وتريفه والآخرون يحبّون لولو حبّاً جمّاً" كما لو أنّها وردة البيت، بل أنّ صديقات تريفه كنّ يعرفنها ويسألن عنها" من فرط ما كانت تريفه تتحدّث عنها، وكنّ يأتين إلى بيت تريفه، ويحملن لولو ويمسّدن ظهرها، ويلاعبنها. وكذلك الحال مع وريا الذي كان يحدّث أصدقاءه عنها" فأحبوها أيضاً. في حين أخذ الأطفال الوقحون الذين ألحقوا الأذى بها، أخذوا يشعرون بالخجل والندم، وكانوا كلّما همّوا بالنوم ليلاً يتذكّرون مشهد تعذيبهم لتلك القطيطة المسكينة، وكيف كانوا كالضواري يضربونها بالعصي، بينما كانت تصرخ من الألم مغلوبة على أمرها، وتتراكض هنا وهناك ولا تجد مفرّا للنجاة من هجماتهم الشرسة، وكان بعضهم من فرط الخجل والندم ترتجف شفاههم تحت الألحفة وهم على وشك البكاء، يسائلون أنفسهم: ترى لماذا فعلنا ذلك؟ ألم يكن

هناك أيّ لعب وعمل أفضل من تعذيب تلك القطيطة البكماء؟! كانت التعيسة بحجم قبضة يد، بل كيف كانت تنظر إلينا كما لو انّها تترجّى وتتوسّل: بالله يا أطفال لاتعذبوني ولاتؤذوني أنا خطيّة بلا حول ولاقوّة!

وكذا الحال مع الولدين كمال ونوروز اللذين كانا قد تشاجرا مع وريا وتريفه، وكان بيتاهما قريبين من بيت أمين أفندي،ويسمعان أخبار القطيطة لولو من الجيران، وكيف شفيت بعناية ورعاية بيت وريا وتريفه، وكم هي محبوبة لدى جميعهم بجمالها ولطافتها! ممّا جعلهما يتحدثان عنها كلّما التقيا،ويعربان عن ندمها عمّا بدر منهما من سلوك همجي مشين تجاه قطيطة بكماء بريئة.

قال نوروز لكمال عدة مرّات:

-والله أستحي أن أنظر في وجه وريا وتريفه منذ ذلك اليوم، بل أتخفى كلّما أراهما من بعيد" فما رأيك أن نذهب ونعتذر منهما ونطلب الصفح، ونعدهما ألاّ نتصرّف هكذا أبداً؟

فقال كمال:

-وما الداعي لنطلب منهما الصفح؟ فأنا أيضاً وجدت قطة وأحبّها كثيراً إلى حدّ تفسد عليّ أكثر الأحيان كتابة فروضي المدرسة، حيث تلعب بقلمي ودفاتري، وتقفز أحياناً لى كتفي فجأة، حين أجلس لأكتب دروسي، وذات يوم كادت تسقط على المدفأة التي كنت أتدفأ بها من البرد.

فعلّق نوروز وهو ينظر إلى كمال فرحاً:

-أنا أيضاً أخذت منذ فترة أربّي جدياً جلبه أحد أقرباء والدي، ليذبحوه ويأكلوه، لكنّني تشاجرت معهم وأقسمت بالله بأني: سأقلب الدنيا على رؤوسكم إن مسّه أحدكم بسوء أو ذبحه، فهذا الجدي سأعنى به أنا ولن أدع أحداً يذبحه.

ثمّ ضحك نوروز وقال:

-وأنت تعرف أبي جيداً، فهو لايخالف رغبتي، ولايدع أحداً يقترب من الجدي أو يمسّه بسوء، وقد قال "هذا الجدي لنوروز" يا لسذاجة أبي الذي يعتقد أن ولده من حماة حقوق الحيوان، ولايدري أن ولده قبل فترة قد أنزل أيّ بلاء على رأس قطيطة مسكينة!

ونظر نوروز مبتسماً إلى صديقه كمال وقال:

-حمداً الله" لأننا صرنا عاقلين منذ ذلك اليوم، وأدراكنا أن مافعلناه فعله هجميّة وندمنا عليها.

واسترسل نوروز في كلامه قائلاً:

-ولأني طلبت من أبويّ بإلحاح أن يكون هناك مكان خاص لجديي" أضطرّ أبي ألى أن يبني غريفة قرب الباب في حديقتنا الصغيرة، ليكون في منجى عن البرد والمطر. ضحك نوروز مرّة أخرى وهو يضرب يدأبيد وقال:

-أتدري أين وضعت جدتي في ليلة المطر العزيز قبل فترة؟

فسأل كمال:

-أين أجبني؟

أجاب نوروز:

-جلبته ألى الهول جنب غرفة الإستقبال، حيث بقي حتى الصباح.

ثمّ قهقه نوروز ضحكاً وقال:

-ولكن أميّتعاركت معي عند الصباح" لأنّ بعروراً كثيراً قد انتشر هناك!

نظر نوروز ألى السّماء وقال:

-لاأدري متى ينتهي هذا الغيم وكيف المطر عن الهطول، وتخضوضر الطبيعة" كي آخذ جديي إلى الضواحي" فيشبع من الحشيش الطازج؟

ثمّ مرّت أشهر ورحل الشتاء وانقطع المطر وهدأت العواصف والرعود والبروق، وهلّ الربيع مغطيّاً بالخضرة والجمال وجه الأرض، وراحت براعم الأشجار تتفتح

لتزهر وتورق، ثمّ تثمر ثماراً شتى، ولملم البرد القارس نفسه وغادر عابساً، وأخذ الناس يستعدّون لإستقبال يوم نوروز عيد الكرد. وراحت كلّ عائلة تهيىء نفسها لذلك اليوم المبارك الجميل، وكلّ واحد يريد أن يخرج متنزهاً إلى السهول المحيطة بكركوك الحلوة قلب الكرد. ثمّ جاء يوم نوروز، وسار الناس بأجمل أزيائهم الكرديّة والمدنيّة الأنيقة مستصحبين معهم الأطعمة والمأكولات ومنها الدولمة والكفته، وقصد المتنزهون تلك السهول الواسعة القشيبة الحلوة، حيث انتشروا هنا وهناك. فبعضهم كانوا يدبكون على الأنغام والأغاني المنبعثة من أجهزة التسجيل، وبعضهم الآخر يتجوّلون زرافات، لاسيّما الأطفال والفتيان الأتراب وزملاء وزميلات الدراسة من البنين والبنات، وهم يتحدّثون عن إشعال نار نوروز في الليلة البارحة، كيف وإين...فبعضهم قال:

وقال بعضهم:

-كاد طفل جيراننا أن يقع في النار ويحترق! فنشب شجار داخل عائيله، حيث وبّخ أبوه أمّه للامبالاتهان ودافعت الأم عن نفسها "كنت أنا منهمكة بشؤون البيت، وكان عليك أن تحرص عليه" فأنت الذي كنت قريباً من تلك النار" بينما كان الأب يصيح: "كيف يدع الناس طفلاً في الثانية من عمره يقترب من النار؟! "وهذا ظلّ الشجار محتدماً حتى وقت متأخر من الليل.

وبينما كان الأطفال يقضون وقتاً ممتعاً في تبادل الأحاديث والمرح، إذا بوريا وأصدقائه يمرّون من هناك، فألقى وريا نظره على نوروز مستغرباً أمره وتساءل:

-أهذا أنت؟ وترعى جدياً؟! أحقاً هو أنت الذي قاد حفلة التعذيب يومذاك؟!

وأضاف بابتسام:

-لن أضيف أكثر" فأنت الأعرف باليوم الذي أعنيه!

نظر نوروز بوجه بشوش إلى وريا وقال:

-أجل..يا وريا العزيز. والله لن أنسى ذلك اليوم أبداً، وأنا ندمان أشدّ الندم، بل وأستحي النظر في وجهك، ولكن ماحدث صار درساً ثميناً جدّاً لي ولأصدقائي الآخرين" وها أنت ترى بفسك قد اصطحبت جديي ألى نزهة نوروز، ورطب شليلته بيدي كي لايضيع.

إبتهج قلب وريا كثيراً فقال:

-أحسنت بندمك على فعلتك الهمجيّة..أحسنت مرّة أخرى، ولتعشْ أبداً.

نظر نوروز بغبطة وحميميّة ألى وريا وقال:

-أودّ أن تعرف ياوريا الحبيب أنّ كمال أيضاً وجد له قطّة، ويحملها ويداعبها بعد عودته من المدرسة، وكذلك حال الأولاد الآخرين" فقد أصابهم الخجل وندموا على ما فعلوا... قسماً برأس أبي أصاب الأرق بعضنا ليالٍ عديدة حزناً، ولا أدرى لماذا تصرّفنا في ذلك اليوم كالضواري الوحشيّة، ولم ندرك فعلتنا القاسية السيّئة؟! ولكنكم أنت وتريفه والدكتور حسن أبديتم غضبكم علينا، وأنقذتم القطيطة التعيسة من أيدينا نحن السيّئين النجسين" وبعدها عاد إلينا وعينا" فأدركنا أننا المذنبون عديمو الضمائر، وأنتم على صواب وحق.

قال نوروز بمرح بعد أن ضرب كفاً بكف:

-مارأيك في أن نشكّل جمعيّة" لنلاحق كلّ من يؤذي حيواناً، ونمطره بالحجارة؟

قال وريا ضاحكاً:

-لا، لا... رمي الناس بالحجارة أيضاً عيب، وغير جائز، ولكن يمكن ملاحقة ذلك الشخص وجعله يستحي من فعلته، بجمع الناس حواليه وفضح فعلته الوحشيّة تجاه الحيوان.

سرّ وريا واستبشر كثيراً لكلام نوروز، وهنّأ أصدقاءه، وقال:

-حسناً... سنلتقي فيما بعد، تعالوا إليّ، أو نلتقي في مكان محدد" لنتحدّث عن أولئك الصيّادين، الذين لاتملأ كلّ اللحوم والدجاج والسمك في الدكاكين والسّوق بطونهم، فترونهم يأخذون بنادقهم في أيّام العطل والنزهات، ويقتلون الغزلان والأرانب والطيور البرّيّة.. أجل يقتلون تلك الأقبأج الجميلة العذبة الصوت ويلتهمون لحمها.. جعله الله سمّاً في بطونهم!

هزّ نوروز رأسه وقال:

-والله صدقت" فقد كان لنا جار يذهب منذ الصباح الباكر، ويعود في السماء حاملاً سلّة مليئة بالطيور والعصافير والقطا إلى البيت، لكنّني لم أكن أدرك آنذاك فعلته الشنعاء،وإلاّ لو فعل ذلك الآن" لأمطرت أنا وأصدقائي بيته بالحجارة.

ضحكوريا وقال:

-ها انّك تكرّر ذكر الحجارة!

وأضاف فوراً:

-إذا أمطرتم بيته بالحجارة حتى المسيئين منهم سلوك سيّيء جداً، وغير جائز، وربّما سينفجّ رأس أحدهم أو يعمي" ويصيبكم البلاء.

قال نوروز بابتسامة حلوة:

-حسناً لن نستمطر أحداً بالحجارة، بل نلاحق كلّ من يعذب حيواناً، بالصياح والصفير، ونفضح أولئك الصيّادين، ونشتكي عليهم" لأن الحكومة قد منعت صيد الحيوانات البريّة، وحسناً فعلت.

ثمّ تودع الجميع، ومضى كلّ منهم في طريقة للتفرّج على المتنزهين والمدبكين، ولّما حان وقت الغداء ذهب كل واحد إلى أهله وذويه لتناول الطعام. وقاد نوروز جديه نحو خوان أهله. وبعد الغداء قرّر مع أصدقائه الذهاب إلى وريا" لكي يكوّنوا جمعيّة للدفاع عن الحيوان.

وبعد بضعة أيّام، إجتمع بعض الأولاد والبنات وخاصة تريفه وبضع صديقات لها، في الحديقة العامّة، وبعد التصافح والسؤل عن أحوال بعضهم البعض، إنبرى وريا كخطيب عارف وقال:

-والآن أيّها الأولاد والبنات، نريد الآن أن نؤسس جمعيّة، نسمّيها (جمعيّة الدفاع عن الحيوان)

علق الجميع بصوت واحد:

-حسن جداً.

لكنْ تساءل وكيف يكون ذلك؟!

وعلق أحد أصدقاء نوروز:

-وهل هذا يتمّ ببساطة؟! أي أن نوبّخ معذبيّ الحيوانات، أو نقول لقرويّ لماذا أثقل حماره بحمله، ولمْ يكتف بذلك فامتطاه أيظا، وراح ينخسه بالمنخس "حجه حجه وهوي هوي"؟! وقد رأيت هذا المشهد بعينيّ قبل أيّام وأنا أعود مع أبي في المساء إلى البيت، وكنا نحمل بعض الأغراض. ولأنني انزعجت من المنظر المحزن صحت بالقرويّ: لماذا تعذب هذا الحمار التعيس بحملك الثقيل وركوبك ونخسه، وهو يكاد أن ينطرح أرضاً؟!

كان اسم الولد(نوزاد) وأضاف وهو ينظر في وجوه الحاضرين:

-أتعرفون ماذا كان سيفعل معي ذلك القرويّ" لو لمْ يكن أبي معي؟ كان سيرتجل ويضربني بعصاه. ولقد غضب حتى أبي عليّ ونهرني: ما شأنك يابنيّ بالحمار وصاحبه؟!

أتريد أن نتورّط هذا المساء ببلوى؟!

ثمّ ضرب نوزاد كفاً بكف، وقال:

-أتعرفون جواب القرويّ؟ لقد قال: الليل على وشك الحلول وطريقي طويل، وهذا الحمار يمشي ببطء كأنه نائم أو فاطس!

فقال له أبي:

-أما ترى ثقل حمله وأنت تمتطيه، وتريده أن يعدو؟! إنّه ليس بسيّارة، بل هو أيضا من لحم وعظم ودم وشعور ألقي نوزاد نظرة أخرى على المجتمعين والمجتمعات، ثمّ قال:

-ليس هذا العمل سهلاً، ومن المحتمل أن نتورّط أحياناً في ببلوى أو مكروه.

ثمّ انبرت صديقتان لتريفه وفي عمرها(١٤-١٥ سنة) وهما(روجوان) و(شيلان) لطرح رأيهما، فقالت شيلان:

-إذا ما خشينا الإصطدام بأولئك الجناة وغضبهم وضربهم" فيعني أن نفضّ اجتماعنا وليعد كلّ منّا إلى أهله.

فانبرت تريفه تقول بحماس:

-شيلان على صواب" وإلاّ عمّ نتحدّث؟! يجب ألاّ نعير اهتماماً لأيّ شيء" إذا ما أردنا أن تفلح جمعيتنا وتشتهر، حتى لو تورّطنا في شجار أو بلوى أو مكروه أو تعرّضنا للضرب مرّة أو مرّتين...

وهنا انبرت روجوان ضاحكة وراحت تستكمل كلام تريفه:

-مثلما قالت تريفه.. إذا تعرّضنا مرّة أو مرّتين لشجار وضرب وحتى الحسب من شعرنا" سنشتهر بذلك، ويتحدث عنا الناس قائلين أن فتية وفتيات ظهروا/ ظهرن للدفاع عن الحيوان، وعندها سيناصروننا، وربّما سيخجل الكبار ويؤيّدوننا في مسعانا...

وهنا صفّق وريا والأولاد الآخرون، وأخذوا يضحكون ويبدون الفرح وقال أحدهم:

-والله صدّقت هذه الفتيات، بل يفكّرن أفضل منّا.

فكركرت الفتيات ضاحكات وقالت إحداهنّ:

-ثمّ ماذا؟ أتتصوّرون أنكم وحدكم يمكن أن تكوّنوا مثل هذه الجمعيّة وتتبخترون على رؤوسنا؟!

وقالت روجوان:

-بعضنا بدأت تقرأ الكتب والمجلات منذ السّابعة والثامنة، وحضلت بعض البنات على معلومات كثيرة، وامتلأت أدمغتهنّ بالمعرفة والخبرات.

ضحك نوروز أبو الجدي، وضرب كفاً بكف، وقال:

-أجل.. أجل... صارت البنات فيلسوفات على رؤوسنا، مثلما قال أستاذنا عن (خوله مام عليم): أنت صرت فيلسوف داء التعداد والتحجج والهروب من حضور الدروس!

فضحك الجميع وقالت روجوان وأخريات:

-يعني أنك تصفتا كخوله وتستهزيء بنا؟!

إنبرى وريا قائلاً:

-لا والله.. كلامكنّ موزون وصائب جداً، وأنتنّ موضع ثقة.

ومن ثمّ قرر أولئك الفتية/ الفتيات أن يبذلوا/ يبذلن قصارى الجهود في تشجيع الناس على عدم إلحاق الأذى بالقطط والكلاب والطيور البكماء المسكينة، وأن يكفّ الناس في الفلوات والجبال عن صيد وقنص تلك الغزلان الجميلة ذات العيون الجذابة، والأرانب المكتنزة الحلوة وكل الحيوانات الأخرى. كما قرروا وقررن أن يبتديء وتبديْ كل منهم/ منهن بنشر تلك الأفكار في وسطهم و وسطهن العائلي من الأب والأم والأخوان والأخوات" لكي يناصروا مسعاهم" إذا ما تعرض أحدهم أو إحداهنّ لمشكلة بهذا الخصوص.

وبعد مضيّ أسبوعين، إجتمع أولئك الفتيان وهاتيك الفتيات مرّة أخرى في المكان السّابق نفسه، وراح الجميع يتحدّث بانتصار ومعنويات عالية عن الآباء والأمهات والأخوة والأخوات الأكبر منهم ومنهنّ ومدى تفهمهم لموقفهم

وموقفهن المفرح في الدفاع عن الحيوانات وإدانة التعامل الوحشي والقاسي معه.

إنّ ما قرّره وريا وأصدقاؤه وصديقاته، لم يخطر من قبل على بال الكبار، وهكذا فقد باركهم آباؤهم وذووهم على هذا الموقف الصائب والسلوك الحميد والشعور السّامي في أن يعيش الجميع في أمان و وئام وحريّةمتحابّين، بل ويحبّون الشجر والحجر والحيوان، وطبعاً حب الوطن والشعب بعد الله. وعندها سيكون المرء مرفوع الهامة دوماً، ويكون مرتاح الوجدان" بحيث ما إن يضع رأسه على الوسادة يغطّ في النوم الهانيء ويحلم أحلاماً سعيدة، بالعكس من الإنسان والحيوان. ناهيكم عن أن الناس ينتقدونه ليل نهار ويكيلون له السباب والشتائم خفية أينما يمرّ ويذهب.

إن الطالحين للأشرار يجللهم العار وهم خفيضو الهامات دوماً بين جموع الناس.

٢٠٠٧/٧/٢١

السليمانية

مستان و سابيه
في الليلة القمراء

في السنوات البعيدة جداً قبل الآن، كانت مثل هذه القصّة تحدث، لاسيّما في الأمكنة النائيّة عن القرى والمدن، كما في الجبال العاية الوعرة، التي كانت الوعول والمعزى البرّيّة وأمثالها من الحيوانات الخفيفة الحركة وحدها تتجوّل في سفوحها وشعابها، ومع ذلك كان الناس يعيشون أيضاً في تلك المناطق الوعورة" لكونها مصايف طيّبة آسرة ملؤها الخير والبركة. من ينابيع الماء الزلال العذب والكروم، بالإضافة إلى آلاف الأشجار كالجوز واللوز وشتى الفواكه اللذيذة. وكان الرحّل من القبائل قد عمّروا تلك المناطق، حيث كان الرجال يهتمّون بشان الباستين والكروم، والرعاة بشأن الغنم والماعز والبقر، والنسوة بشؤون المنازل ورعاية الأطفال... وكانوا يعيشون صيفاً في الخيام، وفي بيوت الطين الصغيرة شتاءً خشية البرد القاس" لأن المصايف باردة وطيّبة في الصيف" فكيف يكون بردها شتاءً؟!

وتوجد مثل تلك الجبال الشامخة في الكثير من بقاع كُردستاننا الحبيبة، خصوصاً في منطقة(بادينان) قرب مدن: دهوك، عماديّة، سرسنك وزاخو.. على الحدود

المصطنعة الفاصلة بين كردستان أصلاً أرض واحدة موحّدة، جزّأتها وتقاسمتها الدول الجائرة قبل عشرات السنين، واصطنعت هذه الحدود بين أجزائها الممزقة" ولذا وصفتها بالحدود المصطنعة غير الطبيعيّة. كانت هنالك في بقعة من تلك المناطق الجبليّة العالية الوعرة، وبين الرحّل من إحدى القبائل إمرأة اسمها(مستان) اشتهرت بشطارتها وشجاعتها وحكمتها، لاتخشى سوى الله. وكانت مستان إمرأة فارغة قويّة البنية حسناء وخفيفة الظل.

وطبعاً كانت توجد في تلك الأصقاع الجبليّة حيوانات برّيّة ضارية كالدببة والذئاب والنمور... والتي تلتهم مايقع تحت براثنها، ولم يكن الذنب ذنبها" إنّما لأنّها كانت قد ترعرعت في تلك المناطق الوعرة على هذه الحال، حيث لم توافر لها الغذاء الكافي، ولم تتعّرض للقتل، ولكانت أصبحت أليفة مثل الغنم والماعز والبقر، بل حتى الإنسان نفسه! ودليلنا السّاطع وجود الكثير من تلك الحيوانات البرّيّة نفسها في المدن الكبيرة والبلدان المتقدمة داخل حدائق الحيوانات والمحميّات، حيث تعيش في غرف وأمكنة مريحة كحيوانات جميلة أليفة وهادئة تحب البشر" بحيث تلاعب الزوّار المتفرّجين لاسيّما الأطفال، مثلما الحال مع القرود والدببة. ولقد تدجّنت هذه الحيوانات وصارت أليفة ومحبة للبشر" لأنّها تربّت هناك، ويتوافر لها الغذاء، وتهتم بشأنها الحكومات، ويخدمها مئات العاملين، ومنهم الأطباء البيطريون الذين يفحصونها ويعالجونها إذا احتاجت إلى العلاج.

هنالك في لندن إحدى كبريات حدائق الحيوانات العالميّة، وتدعي(زوو) حيث تعيش مئات القرود والدببة والأسود والذئاب، وكذلك الطيور الصغيرة جداً، حتى الأفاعي والعقارب والسّلاحف والسّراطين والأسماك والتماسيح.. في أماكن مخصصة لها، ويعيش كلّ نوع على حدة، حيث تختلف أماكن الطيور الصغيرة

عن أماكن الطيور الكبيرة، داخل مسيّجات ملائمة" بحيث لاتشعر تلك الطيور بأنها مسجونة في الأقفاص.

أمّا تلك الدببة والذئاب والنمور في المناطق الجبليّة، والتي تحدّثنا عنها سابقاً، والتي كانت تعيش سائبة، وحياتها في خطر دائماً" بسبب صيدها وقتلها من قبل البشر" فقد إستشرست وكانت تهاجم البشر دفاعاً عن نفسها. وكانت هنالك حيوانات برّيّة كثيرة في تلك المناطق الجبليّة الوعرة، لاسيّما في المكان الذي كانت تعيش فيه المرأة الشجاعة مستان.

ذات كانت بضع نسوة يحملن الكيزان الملأى بالماء في طريق عودتهنّ من النبع إلى منازلهنّ" للشرب والإغتسال والطبخ، كانت مستان معهنّ. وكنّ جميعاً صديقات يتبادلن الحديث والنكات ويضحكن أثناء الذهاب والإياب في طريق النبع. وكانت أخريات يتحدّثن عن مشاحنات وشجارات جيرانهنّ، وكانت إحداهن تتحدّث عن زوج إحداهن، كيف ذهب إلى المدينة بحمل من الجوز، حيث باعه، واشترى بثمنه الملابس الجميلة لأمّه وأبيه وزوجته وأطفاله. وقالت أخرى:

-زوجي كسول نؤوم ودائماً نتشاحر.

وبينما كنّ يتجاذبن أطراف الحديث ويروين النكات ويضحكن، إنبرت مستان قائلة:

-لاتنسين غداً سنذهب منذ الفجر إلى النهير" لكي نغسل ملابسنا وملابس أهلنا وأطفالنا الوسخة، ثمّ نغسل رؤوسنا.

فقلن جمعاء:

-وكيف ننسى" وقد أعددنا أحملنا، وكذلك الطشوات والسّطولة والصوابين؟

وبينما كانت النسوة يتحدّثن ويضحكن" كان هناك دبّان ضخمان، وهما أخ وأخت ويشبهان البشر كثيراً، يستمعان إليهنّ، وهما مختبئان في كهف قريب إتخذاه منزلاً للعيش. وكانا مرهفيّ السمع، وكانا أيضاً حيّالين قادرين على

تقليد الإنسان بالوقوف والمشي على قوائمهما الخلفيّة، وحتى تقليد أصوات البشر وكلامهم! وكان الدبّان يسمعان حديث النسوة عن الذهاب غداً في الفجر إلى النهير لغسل الملابس ورؤوسهنّ" لأن الناس هنالك لم يتعوّدوا على الحمّام الحار، وظلّوا هكذا حتى الأمس القريب، بل مازال الكثير من أهل بادينان بلا حمّامات حارّة، ويتحمّمون في حمّامات باردة يسمّونها(سرشورك= مغسلة الرأس) بالعكس من مناطق السليمانيّة وكركوك والموصل وغيرها. ولايحبّذ أهالي مدن بادينان الحمّامات الحارة لحد الآن" فكيف الحال مع أهالي القرى والمناطق الجبليّة الوعرة النائية؟! ولذا كانت تلك الشلّة من النسوة قد قررن الذهاب مثل كلّ مرّة إلى النبع للإغتسال وغسل الملابس.

ولّما سمع الدبّان ماعزمت عليه النسوة" أخذا يتحدّثان همساً بينما، وكانت الدبّة(الأخت) مشعرة ضخمة، وكانت تحكّ جسمها ورأسها دائماً، حيث كان القمل والخنافس والحشرات الأخرى معشش، في شعرها الكثيف. فقالت الدبّة لأخيها همساً:

-ها قد سمعت ماقالت هاتيك النسوة" سأعرف ما أفعله بهنّ. سأتحايل وأخدعهنّ، وأفترس إحداهن" فأنا جائعة جداً، ولايدعنا هؤلاء البشر أن نخرج براحتنا من هذا الغار" لكي نبحث عمّا نأكله، ونشبع بطوننا مثلهم.

فقال الدب الأخ:

-وكيف يمكنك ذلك يابنيّة؟! فسرعان ما تتعرّف عليك هاتيك النسوة، وسيصرخن مستنجدات" فيأتي أزواجهنّ، ويطلقون عليك النار فيقتلونك" فاسمعي كلامي ودعي هاتيك النسوة في حالهنّ.

فوقفت الدبّة على قائمتيها الخلفيتين، وهي تحكّ عش رأسها المليء بالقمل والبرغوث والخنافس، وقالت:

-لا عليك، فالليلة إمّا أن أكون أنا أو تلك المرأة المسمّاة مستان، التي يمتدحها الجميع!

قال الدب الأخ:

-كما تشائين، أمّا أنا فلن أتدخل ولن أدفع عنك" لأنهم سيطلقون أيضاً الرصاص عليّ.

قالت الدبّة الأخت:

-لا..لا.. لاتخرج قطعاً، وسأعطيك حصّة ممّا أحصل عليه.

كان الفصل شتاءً، والجو بارداً جداً، ورغم تساقط الثلج الكثير في الأيّام الماضية، كانت السماء صافية والليلة قمراء منوّرة جميلة وآسرة.

كان القمر المنير ينشر ضياءه الفضي والهدوء على الجبال والوديان والشعاب والنجود" بحيث كان من يخرج من كوخه مضطراً" يتصوّر الوقت نهاراً مضاءً!

كانت الدبّة تتمنى هكذا ليلة مضاءة وطيّبة" لأن النسوة سيخرجن ذاهبات إلى النهير، ولذا قامت ولملمت نفسها، وتلفلفت بقطعة قماش سبق أن نستها إحدى النسوة و وجدتها هي وأخفتها في جحر داخل الكهف.

كان الوقت نحو الساعة الثانية عشرة ليلاً، وقد مضت بضع ساعات على نوم أهالي تلك القرى، الذين تعوّدوا على النوم المبكّر، والنهوض المبكّر مع الطيور. وهكذا كانت القرية خاوية وهادئة. وعندها عصّبت رأسها بخرقة أخرى، وتسللت نحو منزل مستان واقتربت من بابه، وطرقه(طب طب) بيدها المشعرة. ولأن مستان كانت قد أستعدت منذ المساء، فقد كان نومها متقطّعاً، وتنتظر صديقاتها من الجيران أن يجئن لكي يمضين إلى النهير.

وحلما سمعت الطرق على الباب انتفضت وقالت:

-حسناً ها أنذا آتية.

تنكّرت الدبّة الحيّالة وقالت بصوت(سابيه) إحدى صديقات مستان:

-هيّا عزيزتي مستان قومي، فقد ذهبت الأخريات، وقلن سنسبقكما إلى هناك، وسنعد هناك المواقد والنيران، حتى تأتين مع مستان.

عجّلت مستان النعسانة بشدّ عصابة رأسها، ونهصت وقالت مع نفسها:

-ماخطبي؟ لماذا تأخرت هكذا في النهوض؟ لكنّ الوقت يبدو لي مبكّراً" فنحن نذهب في كلّ مرّة في حدود الساعة خمس أو ست صباحاً!

فنشّطت مستان نفسها، وهي تهمّ بحمل أغراضها رغم نعاسها، وتثاءبت، ورفعت صورتها قليلاً وهي تبتسم حين اقتربت من الباب، وكان زوجها وأطفالها نائمين:

-يا سابيه لماذا تبقين في الخارج في البرد ولاتدخلين، حتى أهيّء نفسي؟!

أجابت الدبّة المتنكّرة بتقليد صوت سابيه:

-لا..لا..لن أدخل.. فاسرعي أنت فقد تخلّفنا عن الأخريات.

وعندها خرجت مستان وسدّت باب المنزل وراءها بهدوء، لكنها لّما لم تجد سابيه أمام الباب، فإلتفتت فرأتها واقفة على بعد" فضحكت مستان وقالت:

-ماخطبك؟ لماذا ابتعدت هكذا؟ إنتظريني حتى أصلك فنمضي سوية.

كانت الدبّة تخشى أن تراها مستان عن قرب، فتنكشف على حقيقتها، انها ليست سابيه، وإنّما خدعتها متنكّرة" وخشيت سوء العاقبة، فقالت:

-لا عليك فأنا أتقدّمك ممهدة لك الدرب الذي يغطيه الثلج. إستغربت مستان وخامرها هاجس الشك، ولم تصدق كلامها رغم انها اقتفت أثرها" حيث وجدت المدّعية كونها صديقتها سابيه تسرع كثيراً، ولاتشبه هيأتها سابيه بتاتاً" فهي ضخمة جداً، وتمشي متثاقلة مترنّحة، وخطاها واسعة جداً، ورأسها معصوب بطرحة كبيرة!

لكن لم يبق مجال لتراجع مستان وهي تتبع تلك المخلوقة، وكانت تفكّر بالعاقبة إذا ما صرخت مستنجدة، أو لاذت بأحد المنازل" لربّما تهاجمها قتؤذيها، العمل؟!

قالت مستان المعهودة بشجاعتها وحكمتها لنفسها:

-سأقتفيها وأفكّر بحل ما لهذا المازق.

وبينما كانت مستان تمشي وتفكر، توقفت الغولة المتنكّرة في شخصيّة سابيه والتفتت وقالت بصوت فيه غنة:

-هيّا يا مستان إسرعي وتقدّميني وسأتبعك أنا بعد الآن.

فقالت مستان مع نفسها:

-إذنْ فقد صحّ حسدي" فهذه غولة ضارية يقول الناس عنها(الغولة آكلة البشر) لقد إنتهى الأمر ستهجم عليّ الأن. ورغم ذلك تمالكت مستان أعصابها، وقالت بصوت عال:

-لكن حملي ثقيل، ولايمكنني السير يسرعة مثلك، فأنا حاملة صرّة كبيرة من الملابس مع طشت وطنجرة وسطل ورزمة من الحطب اليابس، ومازال الدرب بعيداً حتى النهير.

قالت الغولة:

-على مامك، لكنني أقول إسرعي حتى تصلي صديقك اللواتي ينتظرنك عند النهير.

حثت مستان خطاها وتشجعت وقالت:

-عن أيّ صديقات عند النهر تتحدّثين؟! فهنّ الآن مازلن نائمات، لكن الوقت اختلط عليك فتصوّرت الليل المقمر فجراً، فمازال الوقت مبكّراً جداً، انها الساعة الثانية عشرة ليلاً يا عزيزتي سابيه!

تظاهرت مستان بأنها تصدق الغولة على انها سابيه، وتفرح على انها قد خدعت مستان. وسارت مستان والغولة مسافة أخرى واقتربتا من النهير، فنادتها مستان مرة أخرى:

-ألمْ أقلْ لك ان الوقت اختلط عليك؟ فأين صديقاتنا وأين المواقد المشتعلة؟!

ضحكت الغولة من وراء الوصلة الكبيرة، وصكّت أنيابها ببعضها وقالت:
-لا.. لا.. لاتقلقي فإن لم يصلن حتى الآن، سيجئن عمّا قريب حتماً.
وعندها حكّت بقوّة جسمها ورأسها.
وأخيراً وصلت الغولة ومستان النهير، وعندها اقتربت الغولة الوحشية من مستان وقالت:
-حقاً صدّقوا انك شجاعة وذكيّة وحكيمة، وقد عرفت منذ البداية انني لست صديقتك سابيه، ومع ذلك لم تضطربني ورافقتينني، ولذلك لن أمسّك بسوء" إن تحمّميني جيّداً.
إختارت مستان المسكينة واضطربت قليلاً، وهي تواجه هذه الغولة الرهيبة، ورغم ذلك تمالكت أعصابها وقالت بصوت واثق:
-وما الخطب، مرحى لك على الرحب والسعة، سأحمّمك جيداً، وسأرش جسمك بمبيد القمل والبرغوث والقرد، وأقوم بتجميلك" وتصبحين صدقتي.
وقالت الغولة مع نفسها:
-أجلْ.. قسماً برأسك حالما تنتهين من غسلي، سأنقض عليك وأزدردك بعضة واحدة، فامهليني قليلاً.
ثمّ ألقت نظرة على مستان:
-ولمَ لا؟ سنصبح صديقتين حميمتين. فلّتحمّميني أولاً.
وضعت مستان حملها الثقيل عاى الأرض، وسارعت بإيجاد ثلاثة أحجار نصبتها أثاقي للموقد، وجلبت الحطب وأشعلت النار، ثم وضعت عليها قدر مليء بالماء. كانت مستان خائفة جداً وقد تسارع نبض قبلها، لكنها تمالكت أعصابها، وقالت مع نفسها:
-يجب ألاّ أخاف، ولا أتشوّش، وإنما يجب أن أنتقم باستخدام عقلي، رغم انها ضارية ضخمة، لكن الإنسان أقوى بعقله. فقط ينبغي ألاّ أخيف نفسي فأنهار.

إنشغلت مستان بإعداد الماء الساخن، فملأت في البداية سطلاً بالماء الدافيء، وكذلك الطشت، وألقت طاسة كبيرة في السطلة، وفي الوقت نفسه كانت تؤجج النار ليغلي ماء القدر ويفور، وهي تفكّر وتقول مع نفسها يا للبلهاء التسعية! لاتدري بمصيرها بعد غسلها بالماء الفاتر! وعندها شّمرت مستان عن ساعديها، وانظرت إلى الغولة وقالت:

-سهيّا تعالي أغسل رأسك جيداً، وأخلصك من القمل والخنافس، ثم أرش جسمك بمبيد الحشرات.

فاقتربت الغولة المشعرة المكتظة بالقمل والبراغيث والخنافس من مستان وقالت:

-نظفي رأسي" وبعدها ستعرفين كيف أصبح صديقتك الحميمة، وأرد جميلك أجمل ردّ.

وقالت مع نفسها وهي تنظر إلى مستان:

-والله أنا جائعة جداً. قسماً برأسك سألفلفك وآكلك، وأعطي أيضاً حصّة أخي، فهو الآن أشدّ جوعاً مني، لكنه كسول لايخرج ولايسعى، بل هو جبان أيضاً، ويقول:

-لئلاً يطلقوا عليّ الرصاص.

وينبطح دوماً كأيّ طفيلي كسول ويطلب مني أن أدبّر له ما يأكله" ولذا أمتلأ رأسي وجسمي بالقمل والخنافس" إذ لامجال لديّ لأنظف نفسي، وأبقى وسط الشوك والفئران والأفاعي بسبب أخي الجبان والكسول.

وجلست الغولة أمام مستان وهي تقلّب هذه الأفكار في ذهبا، واستعدّت صاكّة أسنانها أن تنقض على مستان" إن بدرت منها إساءة ما. أمّا مستان فقد تظاهرت بالبشاشة وقالت:

-مرحى لك على عيني سأقضي على كل الخنافس في رأسك، وسترتاحين، وتنامين نوماً هانئاً بعد الآن.

ومدّت يدها وملأت الطاسة بالماء الدافيء، وسكبت الماء على رأس الغولة، وراحت تصوبنه، وتمشط شعرها لتنظيفه من القمل والخنافس، ثمّ أعادت الكرّة وتابعت التنظيف. وراحت الغولة تشعر بالراحة والهدوء رويداً رويداً بينما تسكب مستان الماء الدافيء على جسمها وتصوبنه وتنظفه من كل الخنافس والقمل، وكادت الغولة أن تبكي فرحاً، وقالت مع نفسها:

-عاشت يداك يا مستان" فلأول مرّة أشعر بالراحة في حياتي!

وغص حلق الغولة بالدمع وقالت مع نفسها:

-كيف سمحت لنفسي أن أخطط للإنقضاض على مستان الطيّبة الحنون وآكلها؟! والله لن أمسّها بسوء، بل بالعكس سأقبّل يديها وقدميها، كيف يسمح قلبي أن أؤذي هذه المرأة الشجاعة والحيكمة الحنون؟!

مدت الغولة الضخمة يدها بهدوء وفركت عينيها الدامعتين المتحرّقين بوغف الصابون. ولأن مستان كانت منشغلة بغسل وتنظيف رأس الغولة وجسمها" بدت لها مسكينة وتعيسة في حقيقتها، فهي ضعيفة نحيلة، ولكنها كانت تبدو ضخمة بشعرها المنفوش. ولأن مستان كانت إمرأة شفوقة وذات قلب كبير طافح بالرفق والرحمة" قالت مع نفسها:

-كيف سمحت لهذه الفكرة الجهنّميّة أن تراود عقلي" لقتلها، فهذه بضع عظمات وجلد وجائعة تعيسة. وشهقت شهقة عميقة وأطلقت زفرة حارّة وقالت مع نفسها:

-يا للتعيسة كنت أريد أن أغافلك متظاهرة بغسل رأسك وجسمك حتى يغلي الماء ويفور فأسكبه على رأسك وأقتلك!

وشعرت بانزعاج وحزن شديدين وقالت:

-كيف أفكّر بهذه الفعلة الشنيعة، كيف سمح قلبي أن أخطط لحرقها بالماء المغلي؟ ولماذا يكون البشر على هذا القدر من القسوة؟!

وقالت لنفسها معللة:

-كنت سيّئة النيّة" لأنني لم أكن أعرف حقيقة بؤسها، ومع ذلك لست ملومة" لأنها خدعتني، واستدرجتني في هذا الليل والثلج والبرد، رغم انني أكاد الآن أن أبكي عليها وأشفق على حالها، ولكن لاأدري ما الذي ستفعله بي فيما بعد؟!

وعندها إلتفتت الغولة وألقت نظرة على مستان وقالت بخجل وكآبة:

-إصفحي عنّي، ودعيني أقبل يديك وقدميك" فقد كانت نيّتي سيّئة جداً، وكنت أريد أن آكلك، لكنني نادمة جداً، لأنني جئت وخدعتك، ومع ذلك حصل خير" فقد تبيّنت لي حقيقة أن ليس كل البشر قتلة الحيوانات. ها هي أنسانة مثلك رحيمة وشفوقة وذات قلب كبير، فأنا شاكرة لك جداً، وسأظل صديقة مخلصة ماحييت، وأتحدث عن معروفك لصديقاتي البريات وأبيذن حقيقة أن ليس جميع البشر حامليّ بنادق وقتلة حيوانات.

نظرت مستان إليها بعطف وقالت:

-أنت أيضاً يجب أن تصفحي عني" لأننيبسبب خوفي الشديد منك، كنت قد نويت الإنتقام منك والتخلّص منك.

ثمّ مسّدت مستان رأس الغولة وقالت:

-حمداً االله" لم يؤذ إحدانا الأخرى، وها قد أصبحنا صديقتين، وسأبذل كل ما في وسعي لأدبّر يوميّاً لك الطعام مما يزيد عندنا، وأجلبه ألى الكهف.

مسكت الغولة يد مستان و وضعتها على صدرها رغم الوغف وقالت:

-أشكرك جداً، وأفتديك بروحي" لأنك حمّمتينني وخلّصتينني من هذه الخنافس القذرة.

قالت مستان:

-إجلسي لأكمل غسل رأسك وجسمك.

غسلت مستان الغولة غسلاً جيداً، ثم جففتها بالوصلة الكبيرة، وتركتها أمام النار حتى تجف.

ثمّ لملمت مستان الحاجيات والملابس وقالت:

-يجب أن أعود لأن الوقت مازال مبكّراً جدا" ولكي لايعرف أحد بما حدث بيننا" لئلّا يجيء أحد ليؤذيك، مع انني لن أسمح بذلك، وسأبذل كل ما وسعي لكي يتصرف الناس معكن تصرفاً جيداً، وعليكنّ ايضاً أن تتصرفن مع البشر تصرفاً جيداً، ولاتؤذينهم.

قالت الغولة:

-لأننا نخشاهم" فهم يطلقون علينا الرصاص حالما يلمحوننا.

ونظرت إلى مستان وقالت:

-ليت كل البشر مثلك" لكانت الدنيا حلوة جداً، بل ما أحلى الحياة" لو لم يخش أحد أحداً، وأن يقضي الجميع حيواتهم بمسرّة و وئام.

ثم هبت الغولة لحمل الصرّة والقدر والطشت والسطة وهي تقول:

-والله سأحملها كلها ولن أدعك تحملين أيّ شيء.

ومن ثمّ وصلتا قرب باب منزل مستان" فوضعت الغولة الحمل على الأرض، وألقت نفسها على قدميّ مستان، ثمّ احتضنتها، وقبّلتها بفمها الكبير ذي الأنياب، وقالت:

-سأعود الله لك بالخير" ما حييت، وأشكرك.

فقالت مستان:

-يوميّاً، كلّما تهداً القرية" سأجلب أليك الطعام، وأضعه على عتبة الكهف.

فقالت الغولة:

-بالله عليك لاتغادري أحياناً بسرعة" لكي أسعد بلقياك" لأنني سأشتاق لك.

ولّما وصلت مستان ألى البيت، كان الوقت فجراً. وحالما دخلت البيت" إستيقظ زوجها على صوت الباب، فنهض وسألها مستغرباً:

-أتريدين الذهاب إلي النهير، والساعة قبل الرابعة فجراً؟! تلعثمت مستان، ولم تعرف بمَ تجيب، وقالت فقط:

-والله لم أدرِ أن الوقت مازال مبكّراً جداً.

وقف زوجها، وألقى نظرة على مستان، فرآها متشوّشة ومضطربة جداً، وشاحبة وتبدو متعبة جداً، وتحمل صرّة كبيرة، وتبدو كما لو عادت من مكان بعيد" فارتبك وسألها باهتمام فائق:

ماخطبك يا مستان؟! ما الذي أصابك؟ أجيبيني بسرعة" لأعرف لماذا تغيّرت هكذا؟!

كانت مستان مرتبكة ومضطربة ومنهكة جداً، ولم يكف زوجها عن تساؤلاته الملحّة المشوبة بالريبة" فاضطرّت أن تبوح بالحقيقة. فقالت:

-أولاً إحفض صوتك" لئلاّ يستيقظ الأطفال، ويصيبهم الخوف، وسأوي لك الآن كلّ شيء، ولاأريد منك إلاّ إعداد شاي حار" لأشربه لأن بلعومي يكاد أن ينسدّ، ورأسي يتألم جداً.

فأخذ زوجها بيدها وأجلسها وغطّاها بلحاف وبطّنية، وقال:

-سأعد لك الشاي بأسرع مايمكن.

لقد خاف زوجها وانزعج كثيراً من يصبها مكروه" لأنه كان يحبّها حبّاً جمّاً" لكونها إمرأة طيّبة وعطوفة جداً ليس له وأطفاله فحسب، بل لجميع أهل القرية.

كان مستان تودّ كل الناس، وتهبّ لعون كلّ من يتعرض لمشكلة، ولذلك كان زوجها يحبها جداً، وكان مرفوع الهامة وفخوراً بشعورها الإنساني الطيّب وسلوكها الحميد المحمود، وكان يحترمها جداً. وكان اسمه(محو)

وسارع محو بإعداد الشاي، وجلبه إليها، وسألها باهتمام:

-كيف حالك الآن ياعزيزتي؟ ألمْ يتحسّن وضعك؟ ألمْ تتدفئي؟

لمْ تشأ مستان أن يقلق زوجها ويضطرب فقالت:

-أجل.. حمداً لله، تحسّنت فلاتقلق، سأشرب هذا الشاي وتتحسن حالتي أكثر.

جلس محو إلى جنبها، وقال لها بهدوء:

-أخبريني بسرعة عمّا أصابك" وإلاّ أخبص الدنيا!

كانت مستان تثق جداً بزوجها، ولمْ تكن تخفي عنه أيّ شيء، وقالت وهي ترفع استكانة الشاي إلى فمها:

-إهدأ سأحكي لك كلّ شيء، ولكن عاهدني ألاّ تبوح لأحد بالسرّ.

فقال محو باهتمام وحماس:

-قسماً بعينيك لن أبوح به لأحد.

إرتشفت مستان رشفة من الشاي، وراحت تروي الحكاية كلّها بصوت منخفض، وفي الختام نظرت إلى زوجها متوسّلة وقالت:

-بالله عليك لاتؤذ الدبّ والدبّة اللذين حدثتك عنهما.

فإحتضنها محو وقال:

-عشت يا حبيبتي، وحمداً الله العظيم على سلامتك. إن ما فعلتيه هذه الليلة لمْ يفعله أيّ بطل مغوار، والله لن أؤذي الدبّ والدبّة، ولن أدع أحداً أن يؤذهما وسآخذ لهما حتى لقمة فمنا" مادامت تلك الدبّة لمْ تؤذك، وأعادتك بالسلامة. ولكن ما اجترحتيه جدير بأن يعلم به كل الناس لا أن يبقى مخفياً" فيجب أن أخبر أهالي القرية جميعاً" فمن الإجحاف أن يبقى هذا العمل العظيم طيّ الكتمان.

بالله عليك أرجوك ألاّ تخبر أحداً" لئلاّ يذهبوا ويؤذوهما. قال زوجها:

-ماذا تقولين؟ سأقطع يد كلّ من تسوّل له نفسه إلحاق الأذى بهما، وبالعكس ممّا تتوقعين" سترين كيف أن أهالي القرية سيحبونهما، ويزوّدونهما بالطعام.

فقالت مستان:

-حسناً... ولكن ستأتي صديقاتي بعد قليل" لنذهب إلى النهير، لغسل الملابس، فقل لهنّ بأني مريضة، ولاأستطيع الذهاب معهنّ.

-لا عليك، أنت نامي وارتاحي، والباقي عليّ.

وبعد هنيهات، حلّ الصباح وجاءت صديقات مستان حاملات الصرر، ووقفن أمام باب منزلهم ونادين عليها. ففتح زوجها الباب واستقبلهنّ وأخبرهن ان مستان قد تمرضت الليلة ولاتقدر الذهاب معهنّ. وعندها دخلت صيقلتها سائلات منها عن حالها:

-ما الذي أصابك؟ لقد كنت بالأمس في أتمّ صحة! وقد قررنا نحن أيضاً ألاّ نذهب بدونك.

وبعد سويعات حلّ النهار الوضّاح، فذهب محو وجمع الناس في الجامع، وراح يحكي لهم بالتفصيل عمّا حدث لمستان مع الغولة العظيمة، وقال مصداقاً للحكاية:

-إذهبوا إلى النهير" لتروا الآثار الباقية: الموقد والرماد وشعر الدبّة.

فهتف الجميع:

-عاشت مستان.. عاشت مستان.

وسارعت صديقاتها بالعودة إليها، وكلّ واحدة تحتضنها وتقبلها معربة عن محبتها لها. ومن جهة أخرى ذهب بعض الناس إلى النهير، حيث شاهدوا آثار غسل الغولة:

الموقد والرماد وكتل الشعر التي مازال القمل والبرغوث فيها، أمّا الخنافس فقد انتشرت هنا وهناك تحت هذا الحجر وذاك طلباً للدفء، فضلاً عن النافقات منها بسبب الماء والصابون.

ثم عاد أولئك الناس إلى القرية وسارعوا بالذهاب إلى بيت مستان مع الهدايا تعبيراً عن المحبّة. ومن ثمّ قرر شيوخ القرية و وجهاؤه مع ملاّ الجامع أن يجلوا مستان عمدة للقرية، يستشيرونها في كلّ شيء" لرجاحة عقلها وحكمتها وشجاعتها الفائقة وبطولتها. ولذا فقد طلب مستان من الناس قبل كلّ شيء أن يعاملوا الدبّة والدبّ بالحسنى، وأن يزوّدوهما بالطعام" وسوف لن يهاجما أحداً بعد الشبع، ويتجوّلان بلاخوف، ويصبحان صديقين للناس. فقر الناس جميعاً اتباع ما أوصت به مستان، وأقسموا على تزويدهما بالطعام

وبعد شهر تعارف الدب و الدبة الضخمان مع أهالي القرية، وتآلفا معهم مثل الغنم والبقر والخيل والحيوانات الأليفة الأخرى، وكان أهالي القرية يحبونهما كثيراً، واشتهرا في عموم المنطقة.

ولّما حلّ الربيع وطاب الجوّ" أخذ الناس يأتون من القرى الأخرى للتفرّج على الدب والدبة" ممّا اغتنت قرية مستان بهداياهم إليها والطعام للدببة.

ينبغي على الإنسان أن يكون طيّب المعشر حليماً وعطوفاً ويعامل الآخرين بالحسنى" لأنه سيجعل حتى غريمه وعدوّه أن يستحي من نفسه ويندم، فيقول مع نفسه:

-أنظر كيف أخجلني بحمله وطيبته، بينما كنت سيّئاً معادياً له!

ومثلما قال القدامى: "أعمل المعروف وألقه في الشط" فكلّما أحسن المرء وكان حليماً مسامحاً" سيكون ظافراً ومحبوباً عند كلّ الناس، ولن يذهب إحسانه هدراً.

يحبّ مصلحة الشعب، ويحبّ أيضاً الكرد، وكان أكثر المربّين إليه من الكرد، الذين يثق بهم كثيراً. ولكونه ملكاً صالحاً فقد تىمروا عليه وقتلوه، بينما أشاعوا انّ سيّارته اصطدمت بشجرة!

كان الملك غازي قد تخرّج ضابطاً في الكليّة العسكريّة، وكان طيّاراً ماهراً" فكيف الحال مع سياقة سيّارة؟! ولذا ساد الإعتقاد انّه أغتيل بمؤامرة محبوكة. وحين رحل الملك غازي خلّف ولداً صغيراً اسمه(فيصل) مسمّى على جدّه الملك (فيصل) ولأن عمره لم يكن غير بعض سنين" نُصِبَ خاله(عبدالإله) وصيّاً عليه" ريثما يكبر فيصل ويبلغ الثامنة عشر" فيتوّج ملكاً. وهكذا انشغل خاله عبدالإله وذووه: جدته وأمه وعمّاته وخالاته بتربيته وإعداده ليصبح ملكاً عند بلوغه الثامنة عشر من عمره.

وبعد إكمال فيصل مرحلة دراسته الإبتدائية، بعثوه إلى لندن لإكمال دراسته. ولأن التلفزيون كان موجوداً في لندن والبلدان المتقدّمة" فقد أصرّ فيصل حين عودته في العطلة الدراسيّة على إقامة محطة بث تلفزيوني في بغداد، بينما كانت دول الجوار تفتقر إلى التلفيون، بل كانت متخلّفة جداً عن العراق وحتى كردستان!

٢٠٠٧/٣/١٢

السليمانية

سبعة أبطال أصدقاء

قبل خمسين عاماً، كانت هناك في السليمانية بضع دور للسينما، بأسماء: (كّويجه)، (الرشيد) و (سيوان)...و كذلك بضع دور سينما صيفيّة على شكل صالات علاض كبيرة مليئة بالمقاعد، لكنّها بلا سقوف، وتسمّى بالسينمات الصّيفيّة، وتعرض فيها الأفلام صيفاً.

كان الناس آنذاك ينامون فوق السّطوح" إذ لم توجد بعد المبرّدات والإركونديشنات والسبليتات مثلها الحال الآن. ولذلك كان الناس ينامون في باحات منازلهم الكبيرة أو على السّطوح. وكان أهالي البيوت القريبة من السينمات الصّيفيّة، كانوا يتفرّجون ليليّاً على الأفلام المعروضة على شاشاتها.

ولمْ تكن أجهزة التلفزيون أيضاً قد وصلت بعد إلى مدن كردستان حينذاك، وحتى إلى وسط العراق وجنوبه، ماعدا بغداد، حيث كانت توجد محطّة تلفزيون محلّيّة تعمل في دار الإذاعة نفسها، وكان البث التلفزيوني مقتصراً الأماسي، وليس كما عليه الحال الآن، حيث يتواصل البث على مدى أربع وعشرين ساعة من مئات القنوات والفضائيّات المحليّة والخارجيّة. وكانت بغداد قد سبقت في

حيازة التلفزيون دول الجوار، بل كان العراق أكثر تقدّماً في التعليم والعلم والمعرفة وأغني من تلك الدول، رغم أن نظام الحكم كان مليكيّاً، ولم يوجد بعد النظام الجموري، وكان أوّل ملوك العراق إسمه(فيصل) وبعد وفاته خلّفه ولده و وليّ عهده(غازي) الذي يقال انّه كان رجلاً طيّباً يحبّ مصلحة الشعب، ويحبّ أيضاً الكرد، وكان أكثر المقرّبين إليه من الكرد، الذين يثق بهم كثيراً. ولكونه ملكاً صالحاً فقد تآمروا عليه وقتلوه، بينما أشعوا أنّ سيّارته اصطدمت بشجرة!

كان الملك غازي قد تخرّج ضابطاً في الكلّيّة العسكريّة، وكان طيّاراً ماهراً" فكيف الحال مع سياقة سيّارة؟! ولذا ساد الإعتقاد انّه أغتيل بمؤامرة محبوكة. وحين رحل الملك غازي خلّف ولداً ضغيراً اسمه(فصيل) مسمّى على جدّه الملك (فصيل) ولأن عمره لم يكن غير بضع سنين" نُصِبَ خاله(عبدالإله) وصيّاً عليه" ريثما يكبر فصيل ويبلغ الثامنة عشر" فيتوّج ملكاً. وهكذا انشغل خاله عبدالإله وذووه: جدته وأمه وعمّاته وخالاته بتربيته وإعداده ليصبح ملكاً عند بلوغه الثامنة عشر من عمره.

وبعد إكمال فيصل مرحلة دراسته الإبتدائية، بعثوه إلى لندن لإكمال دراسته. ولأن التلفزيون كان موجوداً في لندن والبلدان المتقدّمة" أصرّ فيصل حين عودته في العطلة الدراسيّة على إقامة محطة بث تلفزيوني في بغداد، بينما كانت دول الجوار تفتقر إلى التلفزيون، بل كانت متخلّفة جداً عن العراق وحتى كردستان!

كانت كركوك حينذاك مأهولة ومعمورة جداً وطيّبة" بوجود شركة النفط التي يريدها الإنكَليز، فكانت كما لو انّها مدينة الزهور والورود!

وبعدها حدثت ثورة(١٤تموز) فأطيح بالحكم الملكي وقُتِل الملك فيصل الثاني البريء والعديم النفوذ، بينما كان خاله وأزلامه سيّئي المعاملة مع الشعب. ولذا فرح المواطنون عرباً وكرداً بثور تمّوز، ورقصوا ودبكوا" لخلاصهم من أولئك

الحكّام الجائرين، ومع ذلك تأثروا وانزعجوا جداً من قتل الملك يفصل الشاب البريء، وبكوا عليه.. وهكذا إنتهي النظام الملكي وشأن العائلة المالكة.

وبعد بضع سنين وصل التلفزيون إلى مدن العراق بما فيها مدن كردستان، لكنّما كان البث محليّاً، ومع ذلك كان الناس مبتهجين بالتفرّح عليه. ومن جهة أخرى كانت السينمات تعرض الأفلام الجميلة: الإنكَليزيّة، الأمريكيّة، الهنديّة والعربيّة، وكان الناس يصطفون في أرتال أمام شبّاك التذاكر لشراء التذاكر والدخول لمشاهدة الأفلام الرائعة. وفي الوقت نفسه كان التلفزيون يعرض أيضاً الأفلام، ولكن ليس مثل ما عليه الآن.

كان هنالك بعضة أصدقاء يحبون بعضهم البعض كثيراً، ويغدون ويروحون دوماً سويّة، وكان أكثرهم من حيّ واحد، والباقي من حيّ آخر، ولكنهم كانوا متآلفين" لكونهم زملاء في مدرسة واحدة. وكانوا غالباً ما يلتقون أثناء العطلة الصّيفية، وخاصّة في أيّام الجُمَع، ويشترون تذاكر السينما بمدخراتهم القليلة، حيث يختارون فلماً ممتعاً لمشاهدته في إحدى دور السينما، ويبتهجون ويتمتعون بذلك كثيراً.

كانت أعمارهم تتراوح بين الرابعة عشر والخامسة عشر، وأسماؤهم: آسو، بختيار، كاوا، آلان، بروسك، ريبوار وهيوا. كان ريبوار في الخامسة عشر، فكان يسعى دوماً أن يكون قائدهم ودليلهم متباهياً بنصحهم وطرح تعاليمه: إعملوا كذا، ولاتتصرّفوا كذا" فهو سيّيء مضر.

كان بروسك أيضاً في الخامسة عشر، وكا أطولهم قامة، لكنه كان رخواً ولاأبالياً" ويوافق على كلّ ما يطرحه أصدقاؤه، حتى لو لم يستحسنه! فإذا قالوا: "لنذهب" يقول: "حسناً لنذهب" وإذا عدلوا عن قرارهم: "لا، لن نذهب" يقول: "حسناً.. لن نذهب"! لم يكن بروسك من أولئك الذين يمتلكون

الشخصيّة القويّة والإرادة المستقلّة" بحيث يناقش ويجادل" ثمّ يرفض أو يقتنع بهذا الأمر أو ذاك.

كان كاوا في الرابعة عشر من عمره، لكنّه كان قويّاً نشطاً، ومتفوّقاً في المدرسة. وكان يناقش ويجادل ولايمتثل بسهولة لما يطرحه الأكبر منه، فرغم كونه أصغر عمراً ريبوار، كان غالباً ما يفرض رأيه عليه وعلى الآخرين.

كان آسو في الرابعة عشر، كان جباناً نوعمّا ومتذبذباً" فحينا كان قول: "حسناً، لنذهب إلى ذاك المكان" وسرعان ما كان يندم ويتراجع فيقول: "لا، لن نذهب" لئلاّ يغضب أهالينا علينا. لنذهب ونحضّر دروسنا" أو كان يقول: "من من الأفضل ألاّ أجيء معكم إلى ذلك الدكّان.... أو إلى الحديقة العامّة أو إلى مشاهدة سباق بكرة القدم..." وسرعان ما كان يندم ويتراجع ويقول: "حسناً" سآتي معكم"! ولذلككان أصدقاؤه يتشاجرون معه وهم يقولون: "إثبت على كلمة واحدة: أجيء أو لاأجيْ. فأنت تغيّر رأيك ست مرّات في ساعة واحدة" فهل أنت طفل صغير؟!"

كان بختيار في الخامسة عشر، وكان ولداً طيّباً مخلصاً، لكنه كان أكولاً شهيراً بين أصدقائه وأقربائه. وكان لايناقش ولايجادل ولايتشاجر، بل كان همّه الحديث عن الكباب واللفات والرز واللحم والكفته والدوله وغيرها من الأكلات التي تعدّها أمّه البارعة في الطبخ. وطلما كان يستضيف أصدقاءه إلى بيتهم ويقول لأمّه:

-هيّا ماما العزيزة أسرعي بإعداد أكلة شهيّة لنا فأنا وأصدقائي جائعون.

ولأن أمه كانت إمرأة شاطرة وطيّبة وعطوفة" فقد كانت تنفد طلبه فوراً، وتعامل أصدقاءه كما كانوا أولادها. ولذا فقد كانت فاطمة خان أمّ بختيار تسرع إلى المطبخ وتدبّر بسرعة أكلة ما للأولاد، وتضعها على صينيّة وتناديهم: "هيّا تعالوا خذوها وكلوا هنيئاً يا أعزائي "أمّا بختيار لكونه أكولاً

نهماً وشرهاً" لم يكن يفكّر ويتحدّث سوى عن الطعام والأكل، وكان يتصوّر جوعاً على الدوام، رغم انّه لم يكن بديناً، لكنّه كان مكتنز الجسم قليلاً.

والآن نأي على ذكر هيوا، فقد كان في الرابعة عشر من عمره، شاطراً في دروسه، لكنّه كان صداميّاً عنيفاً نوعمّا، لايتقبّل الفكاهة والسخرية والتعدّي منْ أحد. ومع حب أصدقائه له، كانوا أحياناً يعجزون عن التعمل معه" لكونه كان ينفعل ويغضب بسرعة، ولايهاب أحداً. وكان لاعب كرة قدم ممتازاً، وعاشقاً لها، وقد حاز رغم عمره الصغير عاى العديد من التشكرات والتقدير والأوسمة والنياشين" جرّاء فوز فريق مدرسته على الفرق المدرسية الأخرى. فكان هو الآخر مستغرقاً بكلّ شعوره و وعيه في شأن كرة القدم" بحيث كان يحرّك قديمه حتى في مشيه الإعتيادي ذاهباً أو عائداً من المدرسة، كما لوانّه يلعب بالكرة، يركل هذا الحجر وعلبة السكَائر الفارغة تلك!

كان آلان في الخامسة عشر من عمره، ولداً هادئاً وشاطراً وقليل الكلام، ولايحبّذ الناقش والجدال والعراك، وكان يعنى كثيراً بشعر رأسه وشغوفاً بالملابس الجميلة رغم انّ والده لم يكن ثريّا، وكان ولوعاً بالسينما أكثر من جميع أصدقائه.

كان أولئك الفتيات الأصدقاء شغوفين ومغرمين جداً بمشاهدة الأفلام السينمائية التفرج على التلفزيون، إذ كانوا يرتادون السينما في أيّام الجمع، وطالما يذهبون في الأيّام الأخرى بعد أداء فروضهم المدرسيّة إلى بيت بختيار الأكول للتفرّج على التلفزيون ومشاهدة الأفلام الإنكَليزيّة والأمريكيّة.. وكانوا يحبّذون مشاهدة الأفلام الهنديّة في السينما، معجبين بأبطالها الخارقين المتقافزين من هذه البناية إلى تلك...! ولمْ يكن لدى كلّ الناس أجهزة التلفزيون، سوى الأغنياء منهم مثل والد بختيار الكاسب المتمكن والقصاب أيضاً، والذي إشترى مبكّراً جهاز تلفزيون، لخاطر بختيار الذي كان بمثابة ابنه الوحيد، رغم وجود أشقائه

وشقيقاته. لأن شقيقاته الثلاث كنّ قد تزوّجن ويعشن في بيوتهنّ، وكان شقيقه الأكبر قد أكمل دراسته وتعيّن موظفاً حكوميّاً في كركوك قلب الكرد، وكان شقيقه الأوسط يتابع دراسته الجامعيّة في بغداد" لأن كردستان كانت تفتقر إلى الجامعات في خمسينات القرن الماضي ومقابلها، وكان على الطلبة من خريجي الإعداديّات أن يشدّوا الرحال إلى بغداد لإكمال دراساتهم الجامعيّة ويتخرّجوا: أطباء، مهندسين، محامين، مدرسين وحتى معلمين. وكانت كردستان متقصرة على وجود المدارس الإبتدائيّة والمتوسطة والثانويّة، ولكن لاحقاً لم يعد الكرد يرتضون بذلك، وبإهمال وقمع الحكومات المتعاقبة لهم" ممّا أضطروا إلى النضال السياسي السرّي، رغم تعرّضهم للسجن والعسف والتعذيب. ومع ذلك كانوا يواصلون التحدي بنضالهم في سبيل نيل حقوقهم القوميّة المشروعة. فضاعفت الحكومة من قمعهم" فاضطرّ زعماؤهم وقادتهم إلى الإعتصام بجبال كردستان الحبيبة، وإعلان ثورة أيلول ١٩٦١ فأخذت الحكومة ترسل المزيد من قوّتها المسلّحة وتقصف الثوّار بالمدافع والطائرات" ممّا دفع الكثيرمن أبناء شعبنا الكردي إلى الإلتحاق بصفوف الثوّار" وتضاعفت قوّتها أضعافاً. وعندها سمّى أحد قادة الرد، وهو الأستاذ إبراهيم احمد، قوات الثورة بال(بيشمَرگَه=الفدائيين) وراحت قوّات البيشمركَه تزداد عدداً وتنتظم في فصائل وسرايا وأفواج وفرق" فتخشى الحكومة بأسها، ويبث إسم البشمركَه الرعب في قلوب جنودها. ففي جبل أزمر(شمال السليمانيَة) كانت دبّابات حكومة بغداد تتقهقر أمام نيران البنادق البسيطة للبشمركَه الأبطال" ممّا أضطرّت الحكومة إلى إعلان الهدنة بضع مرّات وإجراء المفاوضات مع قادة الثورة الكرديّة، ومنح الكرد بعض الحقوق، ومنها فتح المعاهد والكليّات في مدن كردستان، وتم فتح أوّل جامعة في مدينة السليمانية، وأخذ الكثير من الطلبة الكرد يدرسون فيها، بعدما كان

عليهم أن يذهبوا إلى بغداد لمواصلة الدراسة الجامعيّة، حيث توجد الكليّات والجامعات.

ولأنّ بتيار كان شبيهاً بوحيد العائلة" فقد كانت طلباته تنفذ بسرعة، ولذا كان يستضيف أصدقاءه باطمئنان، فيتفرّجون على التلفزيون، وتطعمهم فاطمة خان بمأكولاتها اللذيذة.

وذات يوم من أيّام الصيف، وقد حلّت العطلة الصيفيّة، ولأن أولئك الفتية الأصدقاء مستغرقين التفكير ومشاهدة أفلام السينما والتلفزيون، راحوا يتحدثون عن أحد أفلامهم المفضلة، فكان أحدهم يقول: "أحسنت أيّها الفتى الشجاع ويقول آخر: "هل رأيتم ذلك الفارس كيف كان يعبر كل تلك الأنهر والتلال والصخور؟" ويقول آخر: "وأولئك الأبطال الأربعة المقنّعون كيف دحروا وشتتوا ذلك الجيش المدجج بالأسلحة؟!"

ومضى أولئك الفتية الأصدقاء يقضون على هذا المنوال جلّ أوقاتهم في هكذا أحاديث. ولمْ يكونوا يدركون أنّ غالبيّة تلك الأفلام خياليّة صنع خبراء الحيل السينمائيّة آلافاً منها" لجذب المشاهدين إليها، والتمتع بها" فتدرّ عليهم بالربح الوفير. أجلْ" لمْ يكن أولئك الفتية ماوراء تلك الأفلام من حيل سينمائيّة" وإلاّ كيف كان(سوبرمان) يطير ويتقافز مابين العمارات والجبال الشاهقة ويتطاير وشاحه من على ظهره كنجاح، دون أن يسقط ويصيبه مكروه؟! ولأنهم كانوا يعتقدون بواقعيّة تلك الأفلام ويتمتّعون بمشاهدتها" فقد كانوا يقصّون صور أبطالهم المحبوبين من صفحات الجرائد والمجلات ويعلّقونها على حيطان غرفهم. وفي أغلب الأحيان كانوا أمَا الصور الصغيرة" فكانوا يضعونها بين صفحات كتبهم" ممّا كانت تثير أحياناً غضب المعلمين والمدرسين الذين كانوا ينتقدونهم: "إنّكم لاتهتمّون بتحضير دروسكم وأداء فروضكم،بل مشغولون طوال الوقت بصور الممثلين والممثلات في البيت!"

لم يكنْ أولئك الفتية يفكّرون في حقيقة لولا الحيل السينمائيّة كيف كان أربعة مقنّعين يستطيعون قتل الآلاف من ذالك الجيش؟ وإلاّ هل الدنيا مدينة بلا صاحب؟! ولمْ يكونوا يتخيّلون أن كلّ تلك الدماء القانيّة التي تسيل هنا وهناك، ماهي غير دهان أحمر اللون، وكل تلك الطلقات خلّبيّة" وإلاّ ففي البلدان المتقدّمة كأمريكا وبريطانيا يلقي البوليس القبض على منْ يصفح أو يركل أحداً ويحبسونه" فكيف الحال مع منْ يطلق الرصاص على الناس ويسفك الدماء على قارعة الطريق؟!

ولأنّ أدمغة أولئك الفتية كانت طافحة بتلك البطولات" فقد كانوا توّقين أن يصيروا هم أيضاً مثل السوبرمان، ويمكنهم الطيران، وإنقاذ الناس من الأخطار، وأسر وخطف الطالحين وسجنهم في الكهوف المظلمة البعيدة. وذات يوم ودّت عوائل أولئك الفتية الخروج إلى النزهة في ونطقة من مناطق كردستان الحلوة الحبيبة" فقرّرت القيام بسفرة عائليّة جماعيّة تضمّ الكبار والصغار مع اصطحاب قدور الأطعمة وخاصة الدولمه، بواسطة سيّاراتهم وبضعة باصات مستأجرة، وقد اختارت الذهاب إلى جبل بيره مكرون و ميركَه بان، حيث تكثر الأمكنة الأمكنة الخلاّبة مكرون المنعشة تحت أشجار الجوز وعند عيون الماء العذب الزلال.

إستعدَ الجميع، وابتدأت سفرتهم يوم الخميس، بكل أفراد عوائلهم، وكان قرارهم أن يقضوا هناك بضع ليال" لذلك أخذوا معهم أفرشة كافية" لأنّ ليالي تلك المنطقة باردة جداً. ثمّ وصلت العوائل جمعاء، وراح الجميع ينزلون الأغراض والحوائج من السيّارات، وافترشوا الأرض بأفرشتهم، كلّ عائلة على حدة, ولكن بصورة متقاربة، وبدأ البعض بإعداد المواقد والطعام، وسرعان ما ابتدأت السماورات بالأزيز، واصطفت الإستكانات على الصّواني. ومضى بعض الرجال

والأولاد لجمع العيدان والأغصان اليابسة كحطب للمواقد، وانشعلت النسوة كل واحدة بمهمة، ونتشر الأطفال في تلك الأرجاء الطيّبة، وأخذ بعضهم بجمع بواكير الجوز، وشرع بعضهم في اللعب، وراح آخرون يتفرّجون على السواقي الصغيرة التي لم تخش الأمهات من خطر غرق الأطفال الصغار فيها. أمّا الأولاد الكبار الأصدقاء الذين قلّما كانوا يفترقون عن بعضهم البعض" فسرعان ما التقوا، وراحوا يواصلون أحاديثهم المحبّذة. ولم يسَعْ بختيار إلاّ التفوّه ببضع جمل مع أصدقائه، والإسراع إلى أمّه متسائلاً:

"قولي لي متى ينضج الطعام فأنا جائع يا ماما؟!"

وكانت أمّه تهمس في أذنه بهدوء:

"بنيّ لم تمض إلا ساعة على مجيئنا. لم ينضجْ أيّ شيء لحد الآن. كفّ عن المجيء والقول: "جوعان..جوعان"

وإلاّ سيسخر منك هؤلاء ويقولون:

"ياله منْ أكول لايشبع هذا الولد! شوفوا كمْ مرّة يجيء إلى أمّه!"

نظر بختيار ألى أمه بغضب صامت، ومثلها همس في أذنها:

"أمّاه! إسرعي فأنا جوعان"

فقالت أمَه:

"حسناً لنْ يتأخر الطعام..إذهب وخذ من تلك الحقيبة السوداء بعض الحلويّات والكليجه، وكله ريثما ينضج الطعام"

وكان هيوا أيضاً يركل هذا الحجر وذاك، ويتمايل وينحني وينتصب ويهرول ويركض، كما لو يلعب كرة القدم. وبعدها قال:

"فلأجلب كرتي، لنلعب في تلك البقعة المستوية"

فأبدا أصدقاؤه الرفض، وقال أحدهم:

"أيّ لعب كرة؟! لنرتاح قليلاُ، ونتغدّى وبعد ذلك.."

وقال آخر:

دعك الآن يا صديقي من كرة القدم" هيّا بنا نتسلّق هذا الجبل الآسار، ولنرَ أين يمكننا الوصول، فهذا الجبل العالي يشبه الجبل الذي شاهدناه في ذاك الفيلم قبل أيّام، حيث كان أولئك الفتية الثلاثة قد شدّوا الحبال المنتهية بالخطاطيف على خصورهم، ويحملون الفؤوس، ويدقون الأسافين" ليتسلّقوا بحذر على مهل: لأن الجبل كان وعراً جداً، وليس فيه ما يمكن أن يمسك أو موطيء قدم"

فانبرى أحدهم قائلاً:

"دعنا الآن من هذا و ذاك، فلابدّ من الغداء أوّلاً، ثم الذهاب إلى التسلّق:

فقال آسو الجبال:

"لا..لا..ليس من الصواب أن يتسلّق المرء الجبل بعد الغداء مباشرة، يجب على المرء أن يستريح قليلاً بعد تناول الطعام"

إنبرى ريبوار مثل كلّ مرّة مظهراً نفسه بمظهر العارف والقائد:

"منْ أين جلبت هذا الكلام؟! أيّ دكتور، أيّ عالم قال هذا ؟!"

أجاب آسو:

"إنه كذلك" لأن خالي شيركو، وأنتم تعرفونه لاعباً ومدرباً للملاعبين كثار، فقد قال في ذلك اليوم:" ينبغي على المرء أن يستريح بعد الأكل، ولايلعب كرة القدم مباشرة" لأن ذلك مضر"

وظلّ أولئك الأصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث، ولمْ يمض اوقت طويل، حتى فرشت السفرات، وتحلقها الصغار والكبار، وراحوا يأكلون ويبتلعون اللقمات.

تبادلت العوائل القريبة من بعضها صحوناً من الماكولات، وكانت عوائل أخرى تتناول الطعام على سفرات مشتركة، بينما كان الفتية الأصدقاء يأكلون سويّة، حيث طلبوا من أهاليهم وضع سفرة مشتركة لهم، وطبعاً كانت مأكولات فاطمة خان أمّ بختيار، لاسيّما اللحوم المقليّة تحتلّ أوسع مساحة من السفرة، بل

وقدّمت أمّ بختيار مثلها إلى سوفرات الأبعد قليلاً، كيف لا" وهي عائلة قصّاب؟! ومن ثمّ رأى الجميع أنّ من الأفضل أنْ يقتصروا على سُفرتين كبيرتين، واحدة للرجال، والأخرى للنسوة وأطفالهنّ، الذين كان بعضهم يقول:"وبعضهم يبكي.

أمّا لماذا قرّروا الأكل على سفرتين منفصلتين" فلوجد نسوة مسنات بينهنّ الجدّات والخالات والعمّات اللاتي كنّ يستحين من الأكل مع الرجال" بسبب أعمارهنّ وسقوط أكثر أسنانهنّ" بحيث لايستطعن تناول الطعام بصورة طبيعيّة مثل الآخرين.

كان بختيار الأكول أوّل من اقتحم السُفرة، وانقضّ يلتهم اللحم المقلي، وآخر منْ ثمّ انتهى الجميع من الأكل.

ولّما قاربت الساعة الرابعة عصراً، شرب الجميع الشاي وتناولوا المرطبّات، وقام كلّ بعضة أشخاص للقيام بعمل ما، حيث انشغلت الأمّهات والشابات واليافعات بحمل السُفرات وغسل القدور والمواعين والملاعق بماء الساقيّة، بينما إنشغلت الأخريات بالسماورات والشاي.

ونهض الفتية الأصدقاء وابتعدوا قليلاً من أهاليهم، وأخذوا يتبادلون الآراء، فقال هيوا لاعب الكرة:

"ها قد أكلنا وشربنا الشاي" فهيّا نتسلّق الجبل، لنر حفر الثلج التي يقال انّها تقع في القمّة"

فقال آسو شبه الجبان:

"ومنْ يقول انّ حفر الثلج تقع على هذه القمّة؟ والله انّها تقع على تلك القمم العالية البعيدة، حيث يذهب ولد من أقاربنا مع شريك له ليجلبوا الثلج على ظهور الدواب، ويقال أنّ الطريق رهيب ومحفوف بالمخاطر.

فانبرى ريبوار المتشبّه بالقائد:

"وليكن الجبل عالياً ومخيفاً، فلابدّ من تسلّقه، وإلاّ فنحن لم نأت إلى هنا لحضانة الأطفال الصغار؟!

فقهقه الجميع ضاحكين.

وعلّق بختيار ضاحكاً:

"ولم لاتقول أن نجلس ويوبّخنا آباؤنا بمواعظهم وتهديداتهم مثل أبي الذي صاح في وجهي قبيل دقائق:"ألم تجلب كتبك معك؟ لقد نبّهتك في البيت ألاّ تنس جلب كتبك" إذ لم يبق غير أيّام للإمتحانات وأنت مكمل في درسين"

ثمّ قهقه قائلاً:

"أتعرفون كمْ بقي لإمتحان المكملين؟ شهر وثلاثة أيّام، بينما يقول أبي: "لم يبق غير بعضة أيّام"!

فضحك الجميع لتعليق بختيار الأكول. قال كاوه المتقدّم في الدراسة وكان من أهل العلم كما يقال:

"حمداً لله" لاهمّ ولا غمّ عندي سوى أن تنفتح المدرسة بأسرع مايمكن" لكي أدوام في الصف التاسع.

ضاق هيوا اللاعب ذرعاً بهذه الأقاويل" فقال:

"إن شاء الله ستظلّون تتحدّثون هكذا حتى حلول الليل، وهاهو نهارنا ينتهي ولم نعمل أيّ شيء يُذكَر، إلاّ الأكل والنقاش والجدال الفارغين!"

ورفع يده مشيراً إلى سفح الجبل وتساءل بحماس:

"فمتى نتسلّق هذا الجبل؟!"

أجاب آسو:

"ها قد حلّ المساء" فالسّاعة الآن هي السّادسة والنصف، فكيف يمكننا الذهاب الآن، وسرعان مايحلّ الظلام" فماذا نفعل من بعد؟!:

فقال رسبوار العارف:

"بنيّ الفصل الآن هو الصيّف" ولايحلّ الظلام حتى الساعة التاسعة، أتراك في الشتاء" إذ تظلمّ الدنيا منذ الساعة الرابعة عصراً؟!"

قال بروسك الطويل:

"لنتسلّق الآن قليلاً على سبيل التجربة، ثمّ نقوم بالتسلّق غداً بعد تناول الفطور، على أنْ نصطحب معنا الطعام الكافي"

وافق الجميع وقالوا بصوت واحد:

"أصبت، لنذهب ونتسلّق على سبيل التجربة"

قال هيوا:

"لأذهب وأجلب حقيبتي الرياضيّة، ففيها كلّ شيء، سأضع فيها ترمس ماء وقدحاً" لربّما نعطش"

وركض ليجلب حقيبة التي وضع فيها ترمس الماء"

فساءلت أخته شادان التي تبكره عمراً، وكانت حسناء وشاطرة ومهذبة:

"ما خطبك تنقض على حقيبتك؟ وإلى أين نويت الذهاب؟! لاتبتعدوا عنا كثيراً أنت وأصدقاؤك" وإلاّ فإنّ أبي، وأنت تعرفه جيّداً" سيخبص الدنيا إذا لمْ تجب على ندائه، وسيخرج السَفرة من أنوفنا! وها قد نبّهتك.

قال هيوا بينما كان يغلق حقيبته ويضعها على كتفه:

"لقد جئنا للنزهة والتجوال، ولمْ نأت للجلوس مع أبي، وهو مستغرق في لعب الدومنة والبباز مع أصدقائه، فمتى سينتبه لنا؟ سأذهب مع أصدقائي حتى منتصف سفح الجبل.

أكّدت شادان على نصيحتها:

"عدْ بسرعة مثلما قلت لك.

أجاب هيوا أخته وهو يركض نحو أصدقائه:

"حسناً.. حسناً.. لنْ نتأخر في العودة"

وسار الأصدقاء واحداً بعد الآخر حتى بلغوا أسفل الجبل، فسارع إثنان منهم بالتسلق، فصاح بهما ريبوار المتشبّه بالمختار وآسو:

"إنزلا" فثمّة درب آخر أحسن وأيسر في التسلّق، وتعوّد الناس على الصعود منه"

فنزل الولدان الصّاعدان وكانا(بروسك وألان) بلا كلام، وتبعا الآخرين، ثمّ سار الجميع واحداً تلو الآخر، وهم يتحدّثون وينكّتون ويضحكون. وبعد فترة قصيرة توقفوا والتفت بعضهم إلى بعض، فبادر بختيار بالقول:

:ما أجمل هذا المنظر! لنملأ رئاتنا بهذا الهواء النقي والعبير الزكيّ"

وأخذ يستنشق الهواء بشهقات وزفرات طويلة وعميقة مرّات متوصلة. فنظر إليه آسو وضحك ثم قال:

"كفّ عن استنشاق الهواء" سيغمى عليك الآن"

فقهقه الأصدقاء جميعاً. ثمّ وجّه آسو كلامه إلى بختيار:

"ما هذا؟! هل قال لك خلك شيركو انّ الإستنشاق مفيد جداً؟"

فأجابه بختيار وهو يستلّق:

"كلا.. يا آسو البطل! لم يقله خالي، وانّما مدرّس الرياضة في ذلك اليوم، وطلب أن نفعل كذا بضع مرّات وتنهيّاً قبيل لعب الكرة، وأنت نفسك كنت هناك. ماذا دهاك؟ كيف نسيت؟!"

قال هيوا اللاعب مقهقهاً:

"بلى كان هناك، لكن باله لم يكن هناك، وإنّما عند الشفته والكباب، ولذا لم يسمع كلام المدرس"

وضحك الجميع وضمنهم آسو وبختيار وهيوا. ومضى هؤلاء الأصدقاء يواصلون التسلّق، ويبلغون أعلى وأعلى... وإذا ببروسك الأنيق النظيف يتوقف وينظر إلى أسفل ويقول:

"يا أولاد! يبدو انّنا قد صعدنا أكثر ممّا ينبغي" لئلاّ ينادوا علينا، ولكن أيّ نداء؟! والله لو ينادون علينا مائة مرّة لن نسمعهم، وها هو الظلام يحلّ" فالساعة تتجاوز السابعة" فهيّا بنا نعود. فأيّده بختيار:

"والله أصاب بروسك" فقد قطعنا مسافة طويلة، ونزولنا سيستغرق وقتاً مماثلاً، فلننزلْ ولنؤجّل التسلّق إلى الغد بعد الفطور"

علّق الجميع:

"ماذا تقول؟! لمْ تمض ساعتان على مجيئنا"

ونظر أحدهم إلى بختيار وخاطبه:

"ماذا دهاك؟ هل جعت من جديد؟!"

فتقدّم كاوه رفاقه في التسلّق لاهثاً، والتفت إليهم قائلاً:

"لنصعد قليلاً"

ثمّ توجّه إلى هيوا قائلاً:

"بالله عليك يا هيوا أنا عطشان. أحسنت بجلب الماء معك" توقف الفتية كلّ في مكانه، وكان هيوا ينزل حقيبته ويستخرج الترمس. ثمّ صبّ الماء في القدح وناوله إلى كاوه، الذي شرب الماء ثمّ قال:

"شكراً لك" فقد كنت ظمآناً"

ثمّ صبّ هيوا لنفسه قليلاً من الماء، وإذا بالجميع يرنون إليه، وكلّ واحد يقول:

"أعطني قليلاً من الماء. حسناً فعلت بجلب الماء"

وراح هيوا يوزّع عليهم الماء، وقد كفّى الجميع، ولمْ تبق منه قطرة، فقال هيوا:

"لقد إنتهى الماء" فلاتنتظروه"

ثمّ قلب الترمس وقال:

"أترون لمْ تبق قطرة الماء" لقد أصبتم، لنعد، وإلاّ ما مصيرنا إذا عطشنا لاحقاً؟"

قال آلان:

"عسى أن نجد نبع ماء،ولكن لمْ نجدْ أثراً لأيّ نبع عبر كلّ المسافة التي تسلّقناها، فأين الينابيع التي كانوا يتحدّثون عنها؟!"

فانبري ريبوار كعادته كأنّما هو الأستاذ ورفاقه التلاميذ، وقال:

"يبدو أنّ العيون والينابيع موجودة في القمّة، ولكن بقيت مسافة طويلة لنصل إليها:

علق آسو بصوت عال نوعمّا كما لو انه غاضب، وهو ينظر إليهم:

"حسناً قفوا هنا ساعة وتحدّثوا عن الينابيع والماء. هاهو المساء يحلّ" فلنصد أو ننزل، ثمّ نعود غداً لنتسلّق ونجلب معنا كلّ ما هو ضروري"

فوجد الجميع انّ من المستحسن أن يعودوا" فسار الواحد تلو الآخر في النزول، الذي لمْ يكنْ متبعاً مثل الصعود، لكنّهم مابرحوا يتجاذبون أطراف الحديث، ويضحكون، وكانوا يتجادلون بصوت عال أحياناً، كما لو انّهم يتشاجرو، لكن الأمر لمْ يكن كذلك" فقد كانوا منسجمين فيما بينهم، وكانوا مبتهجين بصحبتهم، وكأنهم إخوة حقيقيّون متفهّمون فيما بينهم.

وبينما كان الفتية ينحدرون ضاجّين بالنقاشات والنكات والضحك، إذا بثلاثة رجال بالزيّ الكردي يظهرون على بعد، تناهز أعمارهم الخمسين ماعدا أصغرهم، وما إن لمحوا الفتية" حتى باردوهم بالتحيّة، وسألوهم:

"ها أين كنتم يا أولاد؟ أعند حُفَر الثلج؟"

ردّ الفتية تحاياهم، وأجاب أحدهم:

"والله قد جئنا للنزهة والتسلّق، لكننا لم نبلغ القمّة، ولمْ نرَ أيّ حفرة ثلج"

وأضافت كاوه:

"بل لمْ نجد أيّ ماء"

وبدا كاوه ظامئاً.

فنظر إليه رفاقه بطيبة ومرح، وتساءل أحدهم:

"ألمْ تشرب الماء قبل قليل؟! يبدو انّك قد أكلت شيئاً مالحاً جداً"

فأجاب كاوه ناظراً إليهم مبتسماً:

"والله عطشت بسرعة من جديد" يبدو كما انني فعلاً قد أكلت شيئاً مالحاً"

قال الرجال بمودّة، كما لو التقوا أبناءهم أو إخوتهم الصغار:

"تعالوا ها هي عين ماء قربكم، لكنكم سلكتم درباً آخر"

وأشار أحد الرجال بيده:

"كان المفروض أن تسلكوا الدرب الواقع على اليمين، وتتسلقوا، حيث تقع العين أمامكم في الأعلى قليلاً"

ثمّ قال الرجال:

"إنْ كنتم عطشانين وترغبون في رؤية العين" فاتبعونا حيث لمْ تيق غير مسافة قصيرة"

نظر الفتية الرفاق إلى بعضهم البعض، وقال بعضهم:

"مادامت العين قريبة" لنذهب ونراها ونشرب الماء أيضاً"

ورغب الآخرون في العودة" إذ تأخر الوقت، لكنهم خجلوا من المعارضية" بسبب كلام الرجال وإغراء عين الماء. وتبع الفتية الرجالَ، وبلغوا ذلك المكان الجميل في غضون نصف ساعة، حيث توجد العين التي ينبع منها الماء العذب البارد جداً ويصب في حوض من الصخور المصففة، ثمّ يجري منحدراً في ساقية تمرّ عبر سفح ذلك الجبل الوعر الآسر، ولايتضح مسارها، إلاّ هناك" حيث تمرذ من تحت أشجار الجوز والأشجار الباسقة الجميلة.

كان الرجال يبدون متعبين، وكلّ منهم يحمل على ظهره صرّة كبيرة. وحالما بلغوا العين بدأ الفتية بغسل أيديهم و وجوههم، وشرب الماء بكفوفهم. ثمّ شكروا الرجال كثيراً. وكذلك غسل الرجال أيديهم و وجوههم، وتوضّأوا، واتخذوا من

بعض الصخور العرضية الصقيلة الجميلة مصلاّة وراحوا يصلّون. في حين نسي الفتية تأخر الوقت، بل أنفسهم في بحبوحة رؤية ذلك المنظر الخلاّب، وهم يعبّرون عن غبطتهم ويمرحون، وقال بعضهم:

"غداً سنأتي منذ الصباح الباكر جالبين معنا المأكولات" مادمنا عرفنا الطريق الصحيح"

إنتهي الرجال من صلاتهم، وجلسوا، ثمّ أخذوا يفتحون صررهم، ونادوا على الفتية:

"هيّا يا شباب تعالوا كلوا لقمة معنا، رغم اننا لانحمل معنا مايليق بمقامكم، ومع ذلك لابأس.."

كانت صرر الرجال تحتوي على أرغفة خبز وخبز رقاق، وفي إحداها عناقيد عنب وبضع طماطات، وشيء أبيض اللون في كيس، لعلّة جبن كردي أو لبن كيس.

وفتح الرجل الآخر صرّته، وهو يدعو الفتيه:

"هيا يا أولاد.. تفضلوا.. هذه بيضات مسلوقة وخبز صاج وبصل أخضر وطماطة"

وفتح الرجل الثالث الأصغر من رفيقه صرّته وهو يقول:

"هلمّوا يا أولاد" فعندي مأكولات أطيب، فمعي حلوى حلبجه وخبز الصاج وكل هذه البيضات المسلوقة فاسرعوا.."

إضطرب الفتية كثيراً، إزاء دعوت الرجال، فحتى بختيار الأكول، الذي رغب في الأكل، ضبط نفسه، ولمْ يشأكرفاقه أنْ يأكل زاد هؤلاء العمّال المتعبين، بل شكروهم:

"شكراً.. شكراً.. والله نحن شبعانون" فكلوها هنيئاً لكم"

ولكنّ ذلك لمْ يجدِ" إذ لمْ يتناول كلّ واحد منكم ولو لقمة صغيرة معنا"

تقدّم آلان وريبوار وكاوه رفاقهم وقالوا:

"لانستطيع، وينبغي علينا الذهاب" لأن أهلينا المتواجدين في أسفل الجبل ينتظرون عودتنا، وقد أعدّوا لنا العشاء وكلّ شيء، وسيقلقون علينا إذا لم نعد بسرعة، وقد تأخر الوقت فعلاً"

قال الرجال:

"وما الضير في ذلك، وأنتم ماشاء الله شباب ويمكنكم الوصول إليهم ببضع خطوات وهرولات، ولكن يجب أن تذوقوا طعامنا نحن الفقراء، ونحن أمامنا طريق طويل حتى نبلغ مكاننا المقصود"

وأخيراً أضطرّ الفتيه أن يذعنوا لرجاء الرجال، ويتناولوا لقمة هنا وشيئاً هناك. وسارع هيوا إلى ملء ترمسه بالماء و وضعه في حقيبته. وبعدها شكروا الرجال كثيراً و ودّعوهم، وافترقوا عنهم، فقام أحد الرجال ناصحاً إيّاهم:

"أولادي! لاتتأخروا لئلاّ يحلّ الظلام"

وقال آخر:

"مارأيك أن يصطحبهم أحدنا؟"

لم يرض كاوه ونصف الفتية وقالوا:

"لاداعي لذلك" العودة سهلة، وهمناك أهلينا في الأسفل، فاذهبوا في طريقكم بالسّلامة، ونسعود.."

وسار الفتية وهم يتحدّثون عن طيبة وعطف وحسنى أولئك الرجال، ولكن الظلام قد حلّ.. أمّا في أسفل الجبل، فكان الآباء والأمّهات في قلق واضطراب على غياب الفتية في هذا الوقت المتأخر:

"أين هم؟"

"ماذا حدث لهم؟"

"ألى أين ذهبوا؟"

ودخل بعض الآباء والآمهات في مشادّات وشجارات، إذ قال أحد الآباء لزوجته:

"ماشاء الله منْ حرصك على ولدك!"

فصاحت في وجهه:

"كنت منشغلة بالعمل وأطفالي الصغار، أمّا أنت فكنت مستغرقاً بلعب الوراق والمرح والضحك" وإلاّ لماذا نسيت ولدك؟!"

كان والد ريبوار موظفاً فس إحدى الدوائر الحكوميّة، و والدته كَزيده خان مدرسة في مدرسة للبنات، وكانوا عائلة واعية متفهمة. ولآن كَزيده خان متآلفة مع طالباتها" فقد كانت تدرك جيداً كيف يفكّر الفتية في عمر ريبوار، ويسلكون ما يتعلّمونه من رفاقهم. ولذا قامت بكلّ ثقة لتطمئن الآباء والأمّهات المنفعلين، رغم انّها أيضاً كانت في باطنها قلقة خائفة من تأخر ولدها ورفاقه، فخاطبتهم مبتسمة:

"لاتنزعجوا ولاتقلقوا" فأنا أعرف ألاعيب أولئك الشياطين، فاهدأوا، فلا الإنفعال يجدي ولا المشادة والشجار بينكم. لنفكّر بهدوء. فأولئك الشياطين جالسون الآن في مكان ما ويتحدّثون عن السينما وأفلامها وأبطالها الشجعان وجبنائها والسوبرمان"

كانت حلاو خان أمّ آلان جالسة لاتستطيع الوقوف على ساقيها المرتجفتين، ولا التحرك هنا وهناك والحديث مثل الأخريات" لشدّة صدمتها، تذرف الدموع وتدعوا الله بشفاه مرتجفة أن يحمي أولئك الفتية من أيّ مكروه. وكان زوجها قادر، الذي كان أسطه بناء مشهور، ظلّ يتردد عليها بين الفينة والفينة ويطمئن قلبها:

"سيعودون عمّا قريب حتماً"

بينما كان قلبه يكاد أن يتوقف بسبب قلقه على ولده آلان. وراح الوقت يتأخر، والظلام يشتدّ" ممّا يزيد ذلك قلقهم واضطرابهم. وكان أبوا هيوا اللاعب يتشاجران وكلّ منهما يوبّخ الآخر، فهو يتساءل: "لماذا لم تنتبهي لإبنك؟"

وهي تجيبه مستنكرة: "وما هو دورك أنت كأب؟" وكاد أبوا آسو أن يمزّقا بعضهما من فرط الإنفعال والتأثر ويتبادلا ألفاظاً بذيئة لاتليق أمام الناس! وكأنّما انغلق دماغهما" بسبب غياب آسو. ومن ثمّ انقسم الرجال إلى فريقين، ومضى كل فريق إلى جهة للبحث عن الفتية، ولاقام بعض السّابلة في تلك الأرجاء، وطمأنوهم ودلّوهم على الطرق والدروب في المنطقة.

وحلّ الظلام الدامس، وقاربت الساعة الحادية عشرة ليلاً. وكانت الفتيات مضطربات قلقات ومرتعبات يذرفن الدموع وهن يجئن ويذهبن هنا وهناك" لعدم عودة إخوتهنّ. وكان بعضهنّ يقفن بين آبائهنّ وأمّهاتهنّ المتشاجرين والمتشاجرات:

"بالله يا بابا ويا ماما العزيزين لاتتشاجرا، فالناس يتفرّجون عليكم"

وهكذا طغى الشجار والخوف على الجميع، فقال البعض:

"تحوّلت السفرة سمّاً زعافاً، فليتنا لم نخرج من جحورنا"

وكان أبو كاوه يصرخ في وجه زوجته:

"كلّ السبب أنت، فأنا لاأحب السفرات، لأنني متعب دائماً لوجودي في السيّارة منذ السابعة صباحاً في طرق بغداد والموصل، وأتمنى الإستراحة ولو يوماً واحداً فأضطجع وأنام براحة، لكنك لايقرار كلّ مرّة" فيصيبنا مثل هذا البلاء!"

كان لوالد كاوه بضع سيّارات، وله مرآب صغير، ويكتسب بها، ويسوق بنفسه إحداها، وراح يصرخ في وجه زوجته:

"أنت أصل البلاء" كلّ همّك الفر والسياحة!"

بلخ بعض الآباء الجبل وراحوا يتسلّقونه، وهم ينادون بأسماء ألادهم، ولكن دونما أيّ جواب. وبعد فترة طويلة، قال بعضهم لبعض: "لنعدْ عسى انهم عادوا بنعاية الله"

ويقول أحدهم:

"لانريد إلاّ سلامتكم يا أولاد. ولكن كيف ترون طريقكم في هذا الظلام، وإلى أين تذهبون؟"

ثمّ كان يضرب كفاً بكف ويتفجع:

"النجدة.. الغوث يا إلهي"

واضطرّ بعض الرجال إلى العودة مسرعين عبر الضخور، ممنّيين أنفسهم: "عسى أن عاد الفتية الآن"

بينما واصل بعضهم الصعود، وكاد بعض الرجال أن يبلغوا أسفل الجبل، وإذا بشادان تركض كالمجنونة وتصيح:

"إلهي روحي لك الفدا، ذاك ضوء لايت(مصباح) أخي هيوا"

فهرع أولئك الواقفون المتشوّشون نحو شادان وهم يتساءلون:

"ماذا تقولين؟ أتصدّقين؟ هل كان مع هيوا لايت؟ طمئنينا نفتديك بأرواحنا"

كانت شادان تتلعثم من شدّة الفرح وهي تقول:

"أجل.. والله هم وذاك ضوء لايت هيوا العزيز، وهو دائماً في حقيبته الرياضيّة، ومعه بطاريات احتياطيّة. وهو يحبّ لايته كثيراً، وضوؤه قويّ جداً، وأعرفه جيّداً"

وتحلّق الجميع شادان بما فيهم أمّها، يقول هذا: "روحي فداء لفمك "ويقول آخر: "أدعو الله لك بأسعد حياة" بينما قال آخر: "مهلاً.. مهلاً.. لربّما هو لايت أحد الآباء الذاهبين للبحث عن الفتية" فعلّقت شادان:

"أيّ رجال وأيّ لايت؟ أخذ الرجال معهم فانوساً إنكَلبزيّاً، وليس لايتاً"!

وقال آخر:

"بالله اهدؤوا ريثما نتأكد.."

وبينما كانوا محبوصين لاح ضوء اللايت من مكان مرتفع من الجبل، تمّتواري" فصاح أحد الرجال:

"أجل.. انهم الفتية وهم قادمون إلينا، أمّا ضهور الضوء واختفاؤه" فلكون الطريق مترّجاً وفيه مرتفعات ومنخفضات"

فقال البعض:

"إذنْ " لنذهب صوب ذلك الضوء، وننجدهم"

وما إنْ نطق بذلك" حتى هبّ البعض راكضين نحو الجبل، ويخالجهم الأمل والخوف" متسائلين: "أيكون الضوء ضوء لايت هيوا، أم لأناس آخرين؟"

وقال آخرون مفرحين قلوبهم:

"لا، لقد قالت البنت أن ذاك الضوء هو ضوء لايت هيوا، والذي، تقول رحمه خان أمّه عنه انه لايت خاص جبله أحد أقربائهم من البصرة، وكانوا قد ضمّوه في مكان ما، حيث نسوه بضع سنين، وإذا بهيوا يجده عند إعادة ترتيب غرفة واستولى عليه قائلاً:

"من أين لكم هذا الشيء الجميل؟! والله هذا لي"

ثمّ كان يضعه في حقيبته دائماً، ويحرص عليه كثيراً. وبينما كانوا يتحدثون هكذا ويصعدون الجبل، كان الفتية الرفاق يكادون أن يتيهوا بسبب الظلام. كان آسو يخاف كثيراً، ويصرخ بين الفينة والفينة:

"سيهاجمنا ذئب"

كان آسو يبدو خائفاً جداً، وخاصة في هذا الجبل العالي إذا ما ضيّعوا الطريق وتاهوا، في هذا الليل الدامس، الذي لايرى فيه أحدهم الآخر.

كان الجميع يمتدحون هيوا" لجلبه هذا الليلات الحاد رغم كونه طويلاً نحو شبر ونصف وغير ضخم، لكنه ثقيل، وكان ينفع حتى في حالة الدفاع عن النفس،

كأنه هراوة. ولأن هيوا كان يمل الليلات" فقد كان آسو ماسكاً برسغه، ويمشي معه وهو يدمدم ويتصايح، وكان كاوه يتشاجر مع الجميع:

"ألمْ أقلْ لكم لنسرع في العودة؟ ألمْ يدلنا أولئك الرجال الكادحون على الطريق الصحيح؟! ولكنكم كلّما رأيتم صخرة، كنتم تتوقفون وتمثلون أدوار أبطال الأفلام الهنديّة!"

وكان آلان يؤيّده ويقول:

"حسناً.. كلّ ذلك في طرف، ولكن كم توقفتم عند تلك الصخرة الهائلة المنشطرة إلى شطرين متباعدين؟! وكنتم تحاولون تسلّقه، وأنت تجلبوا غداً معكم الحبال لترتقوه وتقفزوا منه كالسوبرمان من هذا الشطر إلى ذاك، فأيّ حال هذا؟! الله وحده يعلم ما ألمّ الآن بآبائنا وأمهاتنا!

كان ريبوار على غير عادته مرتبكاً وخائفاً جداً، بل نسي توصياته وتعاليمه كمختار وزعيم، فكان يقول:

"ليس هذا وقت مثل هذه الأحاديث" وإلاّ سنشوّش أدمغتنا أكثر ونضيع"

أمّا بختيار الأكول فقد نسي أطعمة ومأكولات أمّه، وكان يناشد رفاقه:

"بالله عليكم إمسكوا أيدي بعضكم حتى لانتعثر ونسقط، بالله عليكم ماذا نفعل؟!"

وبينما كانوا يتناقشون ويتجادلون، هبّ بروسك الطويل قائلاً بصوت عال:

"إصمتوا. ألاتسمعون؟"

فخاف أكثرهم:

"ماذا؟ ماذا؟ صوت ماذا؟ بالله عليك"

قال بروسك بغضب:

"إصمتوا أسكتوا يا أولاد" فقد سمعت صوتاً كأنه ينادينا"

فتسمّر الجميع في أماكنهم كأنهم أصنام، وإذا بالصوت الصارخ يعود:

"بختيار، كاوه، آلان، يا أولاد..."

رغم بعد الصوت المنادي عليهم" أخذ الفتية يصيحون بأعلى أصواتهم:

"ها نحن هنا، وقد تهنا"

وأخذ هيوا يسلّط ضوء اللايت إلى كلّ صوب، مرة إلى اليمين، مرة إلى اليسار، مرّة إلى الأعلى ومرّة إلى الأسفل... وهكذا البتهجت قلوب الفتية، وراحوا ينادون.. وكان مع الرجال فانوس إنكَليزي، وراح الفريقان يقتربان من بعضهما بدلالة النداء والضوء المتبادلين، ولمْ تبق غير مسافة قصيرة للإلتقاء.

كانت ساعة قد قاربت الثانية عشرة ليلاً. وصل الرجال وكانوا مرهقين وخائفين جداً وتنضح أجسامهم بالعراق، فاقدي الشعور بسبب قلقهم على أولادهم، أمّا الآباء الآخرون الذين ساروا في طريق آخر، وكان إثنان منهم مرضى ليس في مقدورهم تسلّق الجبال أو تحمّل التعب الشديد.

ولّما إلتقي الآباء والآبناء راحوا يحتضنون بعضهم بعضاً، دون التأكّد من كون هذا هو إبنه وذاك هو أبوه، وكلّ همّهم أن يكون الجميع بسلام.

وبعدها استعادوا وعيهم وشعورهم، وساروا مجتمعين وكلّ أب ماسك بيد ابنه، وكان بينم آباء: آسو، بروسك، ريبوار وهيوا، لكن آباء: آلان، كاوه وبختيار لم يكونوا معهم" لأنهم ذهبوا مع القرويين في طريق آخر للبحث عن الفتية.

وفي الأسفل، كانت النسوة والأمهات يتنفسّن الصعداء وهن يشاهدن ضوء اللايت والفانوس المقبلين إليهنّ، بل كان بعضهن يبكين من الفرح. بالسّلامة.

والتقى أحد القرويين الفريق الثاني من الرجال، وأخبرهم بعودة الفتية" فسارعوا في العودة. علماً أنهم كانوا قد أرسلوا رجلين لإخبار البوليس والحكومة بالواقعة" لكي يرسلوا مفرزة للبحث عن الفتية الضائعين.

ثم التقي جميع الرجال والفتية، وكانوا من شدّة الإنفعال ويبكون ويتحاضنون ويتبادلون الجمل والعبارات العاطفيّة، وتناسى الجميع المشادّات والشجارات

والتهديدات" لابتهاجهم الفائق لعودة أولادهم الرفاق الشياطين الأبطال! في حين كان يقول هذا الأب وذاك: "سأعرف كيف أضرب وأؤدّب ولدي" حتى لايكرّر مثل هذه الفعلة قطّ" ولكن بعدما حل الظلام" أخذوا ينسون تلك اللهجة الشديدة بسبب القلق على مصير أولادهم.

وكان الفتية من شدّة الفرح لايصدّقون عودتهم إلى أحضان آبائهم وأمهاتهم وذويهم. ورادت العوائل التي تمتلك سيّاراتها الخاصة تلملم أغراضها لتعود إلى بيوتها، ولكنها سرعان ما تراجعت عن قرارها، وقرّرت البقاء لتقيم في الغد حفلة رقص ودبكة بمناسبة سلامة الأولاد.

ونعلّم الفتية الأصدقاء درساً مهمّاً" بحيث لايسلكون سلوكاً عشوائيّاً، ولايعرّضون حياتهم للخطر، ولايعرّضون آباءهم وأمّهاتهم وذويهم للقلق والخوف واللكرب. وعليهم أن يتصرّفوا تصرّفاً حميداً" لئلاّ يتعرّضوا للحوادث السيئة مثل هذه، ولكي يعيشوا بفرح وسلامة ورفعة الهامة. وألاّ يقلّدوا بتاتاً الحيل والأكاذيب السينمائيّة" لأنّ المقصود منها التسلية واستمتاع الناس" وإلاّ كيف يمكن لإنسان أن يتقافز فوق العمارات الشاهقة ومن قمة هذا الجبل إلى القمة الأخرى؟ أو إطلاق الرصاص على بعضهم بعضاً وسفك الدماء؟!

فكلّها حيل سينمائيّة" وإلاّ كيف يستطيع المرء أن يصلي الآخرين برصاصاته، دون أن يتعرّض للتوقيف والسجن؟ فمثل هذا سرعان ما يلقي عليه البوليس القبض ويدعه التوقيف، ثم يحاكَم ويُحكم عليه بالسّجن لأمد طويل.

إن الإنسان العاقل الواعي الذكيّ لايحبّذ العراك وسفك الدماء، وإنّما يحب السلام، ويحبّذ استثمار عقله ووعيه وذكائه في الأعمال الصالحة، وأن يبرز كنموذج محبوب في الدراسة والتفوّق والحياة يُشار إليه بالبنان، ويُحْمَد ويُمدَح: "تحيا ألف مرّة تحيا..."

ليلة

٢٥-٢٦/٥/٢٠٠٧ السليمانية